إلى القارئ

البشير خريف المبدع

بقلم : البشير بن سلامة

كانت وفاة البشير خريف بالنسبة الى أصدقائه ومحبي أدبه مباغتة أليمة إذ كنا جميعا نترقب منه نفحات أخرى من قصصه التى عمرت الادب التونسى وأكسبت فن القصة فيه رونقا بهيا ونكهة جديدة قريبة من واقع الناس ولكنها طافحة بروعة الابداع وبساطة الفن الاصيل .

ولم يكن ابداع البشير خريف ثمرة من ثمرات الادب التقليدى المتعارف الذى كانت تحتضنه الجرائد والمجلات وتؤوي صاحبه النوادى والمنتديات بل كان افرازة طبيعية لمجتمع تفاعل مع عدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وكان ظهوره فى الوقت المناسب بعد الاستقلال عندما أخذ الشعب التونسى بناصية امره وأمكن له أن يحقق كمال شخصيته ويزيل كل العوائق النفسانية والموضوعية المضروبة حوله .

ومن الطبيعي بالنسبة الى رجل مثل البشير خريف الا ينشر قبل الاستقلال غير قصتين فقط على ما اذكر وأن يكون مثل العشرات من الكتاب التونسيين الذين يجربون حظهم فى مجال الادب ويكتب لهم ألا ينشروا الا قليلا وألا يعرفوا الا من حين لآخر فى مناسبات تعد على الاصابع .

ومن الطبيعي أيضا أن لا يجد البشير خريف فى فترة الاستعمار من لا يشجعه على كتابة أدبه بهذه الصورة المتكاملة وفى ذلك النسق اللغوى وعلى تلك الملامح الواقعية اللصيقة بالحياة التونسية فى دقائقها ماضيا وحاضرا . إذ المطلوب من كل أديب آنذاك أن يحلق فى سماء اللغة الفصحى شعرا أو نثرا

وأن يبقى متمسكا بالانساق اللغوية المعروفة أو هو اذا أراد أن ينفذ بانتاجه الى صميم الشعب فما عليه الا أن يكتب بالعامية شعرا أو أن يلتفت الى الاذاعة يخاطب عن طريقها كل الطبقات بلغة الجماهير .

وهكذا فعل الدوعاجي وغير الدوعاجي من التونسيين وكان لهم انتاج طيب ومرموق ولكن البشير خريف لم يفعل ذلك وكان في امكانه أن يسلك ذلك المسلك غير أن الروح الابداعية التي فطر عليها أبت عليه ذلك وانتظر عشرين سنة ليعاود الكرة ويجرب حظه مرة أخرى ويخرج للناس تلك اللغة القريبة من اللغة العامية التونسية وذلك النمط من القصة التونسية لحما ودما.

واذا كان للتحليل الموضوعي انطلاقا من تعبير البشير خريف وجهه المشروع والسبيل الاوفق لتحديد جملة هذا المبدع كنمط جديد تطعمت بواسطته الفصحى بايقاع العامية ونفسها والفاظها فان للظرف التاريخي ما يؤكد ويؤيد ذلك ويدعمه .

واذكر أنه في أواخر أكتوبر 1958 بينما كانت أسرة « الفكر » - تنظر كشائنها عشية كل سبت - فيما يرد اليها من انتاج أدبي اذ دخل رجل حيي يلبس الجبة التونسية ويقدم نفسه باسم البشير خريف منتسبا الى الشاعر التونسي المعروف مصطفى خريف . فيرحب به الاستاذ محمد مزالي ويدعوه الى الجلوس ثم يستفسره فيشير فقيد القصة التونسية الى ملف ويقول : إنه يحتوي على قصة كتبها منذ زمان ولم يتيسر له نشرها . فحثه الاستاذ محمد مزالي على البدء في قراءتها ولكن بعض الحاضرين من أسرة « الفكر » شرعوا في مضايقته مما دفع مدير المجلة الى استلامها ووعده بقراءتها وإعلامه بالنتيجة بعد أسبوع .

وكان يوم السبت اللاحق مجالا لنقاش طويل قرر إثره الاستاذ محمد مزالي نشر القصة وسلمني المخطوط وكنت في شوق الى قراءته وما أن عدت الى المنزل حتى التهمت القصة في ليلتها التهاما واعتبرت أن ذلك منعرجا في تاريخ الادب التونسي .

وفي عدد ديسمبر من سنة 1958 ظهر الجزء الاول من قصة « حبك درباني » أو إفلاس وقدم لها مدير المجلة بهذه الكلمات المعبرة : « لا شك أن هذه القصة تثير مشاكل وتعالج عقدا في أدبنا التونسي وتخطط نفسيات عارية من الزخرف والتكلف الا انها لا تروم التقويم من حيث هي ـ ولا تسعى الى التنويه بحميد الاخلاق او تالد المجد ، هي ثورة على التحفظ والتزمت والمالوف ... فيها انتهاج سبل جديدة وجرأة وحياة نأمل أن تمهد لأدب تونسي صميم . ونحن في أسرة « الفكر » رأينا أن نعرضها بما لها وما عليها تباعا ، من دون أن نجهل ما قد يثيره اسلوبها من نقد وما قد يبعثه حوارها العامي من قلق وضيق وما قد تبقيه واقعيتها العارية من أثر سيء في بعض النفوس ـ ولكننا سعينا الى خدمة الادب ، والادب من الحياة النابضة أو لا يكون » .

ولا يظنن القارىء أن صاحب القصة لاقى الشهرة بل ان عددا قليلا من الكتاب فقط نقدها أذكر منهم المرحوم الدكتور محمد فريد غازي والاديب اللامع الصادق مازيغ والقصاصة ناجية ثامر . ولكن البشير خريف عرف الاستمرار في الكتابة بحث منالاستاذ محمد مزالي أيضا الذيكان رئيسا للجنة الثقافة ببلدية تونس التى احدثت جائزة علي البهوان للقصة فكان البشير خريف من اولئك الذين اخذوا ماخذ الجد هذا التشجيع معتمدا أن الفرصة مؤاتية وأن أدبه أصبح له من يرعاه ويقدره حق قدره وكانت قصة « برق الليل » .

واذا كان لفقيدنا حظ اتساع رقعة من يعرفه من القراء فانه لم ينل الشهرة الواسعة بنيله جائزة « علي البلهوان » لعام 1960 أو بطبع قصته هذه « برق الليل » عن طريق الشركة القومية للنشر والتوزيع وهي أول دار وطنية للنشر بل إنه انتظر الى سنة 1965 أو 1966 ليعرف الشهرة الكبيرة. وأذكر انه عندما كنت رئيس ديوان الاستاذ محمد مزالي المدير العام للاذاعة والتلفزة آنذاك قدم الى المذيع محمد حفظي مسلسلا اذاعيا مقتبسا من قصة لجرجي زيدان فقلت له : لماذا جرجي زيدان ؟ ودخلت مكتب استاذ محمد مزالي وقلت له : إن عدد القصص التونسية كثر والمنتجون الاذاعيون التونسيون ما زالوا لا يقبلون على الانتاج فيها، فاشار علي بعرض قصة « برق الليل » على المذيع محمد حفظي الذى لم يقابل العرض الا بالضحك في أول الامر ثم أعرته نسختي وكان اقباله عليها بكل حماس وكتب حوارا شيقا نال اعجاب المرحوم حمودة معالي بعد أن استنكف منها في الاول .

وعرف البشير خريف حينذاك الشهرة الواسعة وعاشت جماهير تونس كبارا وصغارا أطوار هذه القصة وعرف أديبنا شبه تفرغ مكنه من الانتاج والاستمرار فى الابداع وهو أمر لم يتوفر لأى أديب تونسى قبله ولولا هذه الظروف واستقلال البلاد لما كان للبشير خريف ذلك المجال للخلق والابداع .

ولكن فقيدنا لم يكن ذاك الرجل الذى وجد السعادة والهناء وأين للكاتب المبدع الاصيل أن يجدهما ؟ وهو المسكون بهاجس الخلق والابداع والمحتار فى أمر هذا العالم المتزاحم فى نفسه المدعو الى تجسيمه وابرازه الى الناس قطعة فنية خالصة .

لم يعرف البشير خريف الاطمئنان لسببين اثنين : أولهما يتعلق بنمط الكتابة الذى اختاره ، والثانى بحقوق التاليف . فبالنسبة الى نمط الكتابة يظهر ان فقيدنا ابتعد عن كيمياء اللغة المكونة من الفصحى والعامية والتى هى خلاصة ابداعه والسر فى نجاحه ، وركن الى العامية فلم يجد بالطبع المجال الكبير للنشر وأغرق كذلك فى تصوير عيوب فى المجتمع متعلقة بالحياة الجنسية ليس فى الامكان نشرها فى بلد ما زال محافظا . ولهذا لم يتسن للجمهور فى هذه السنوات الاخيرة الاستمتاع بادب خريف .

أما المسألة الثانية فهى صدمة أخرى لم يتحملها فقيدنا وهى أنه لم يتسن له أن يجني الثمار المادية المرجوة من هذه الشهرة فى بلد قراؤه محدودو العدد والحقوق الراجعة للمؤلف لا تعد شيئا يذكر اذا هو حصل عليها ، ويحق للبشير خريف أن يغضب وهو الذى ترجمت قصصه الى لغات عديدة واقتبس منها فى السنما ولم تسو بعض هذه الحقوق الا قبلوفاته بايام .

ولم يتيسر للفقيد أن يفهم ان المجتمعات فى نموها لا يمكن لها أن تحل مشاكلها بسرعة وأن المجتمع التونسى الذى كان يموت « فنان الغلبة » بغصته بدون أن يشعر به أحد وهو شبه مجهول قد قدر بعد الاستقلال ان يكرمه ويعرف به ويحتضنه ولكن المجتمع التونسى ما زال لاسباب عديدة ، لم يمكن الكاتب والاديب من أن يعيش بقلمه العيش الكريم . وهذه مرحلة أخرى يجب العمل على توفير الظروف لها وهى ليست بالبعيدة المنال .

البشير بن سلامة

فراق الأحبة

شعر : محيي الدين خريف

نأتْ بكَ بعد الرحيل الدّيارُ (*) | وفارقَ أشجاره الاخضرار
وبعدك صار الصّباح المندّى | كئيبا عليه من الحزن غارُ
أسى موجع أن اراك بعيدا | وقد شطّ في البعد منك المزارُ
وأنتَ الذي كنتَ في البيت غصنا | وريقا عليه تغنّى الهزارُ
أجبني، فقد طال صمتُ الليالي | ومن بعدها طوّل الانتظارُ
أرابكَ دهرُ النّهايات وهو | الظلام الذي ما اليه نهارُ ؟
وفضّلتَ أن تترك الدار قفراً | وما الدّار — والله — بعدكَ دارُ
أبا القلم الراعفِ المستهام الـ | ـذي هزّه للبعاد السّفارُ
حديثك ما زال في القلب نورا | وفي العين للجاحدِ الغرّ نارُ
وفيضُ عطائك مازال فينا | كما ضاء وسْط الظلام المنارُ
رأيتكَ كالنبع يروي الظماء | وكالظلّ يأوي اليه الصّغارُ
وكالنخل في الرمل يزهو شموخا | وكالطود غطّى ذراه العرارُ
سألتك عن سامرٍ بات قفرا | وعن صحبة خانها الاصطبارُ
وعن واحة الحبّ .. آواك فيء | بها وسقتْكَ المياهَ الجرارُ
أيا فجرها ومنار دجاها | ومن للحمى هزّه الادكارُ

(*) ألقى الشاعر هذا القصيد في أربعينية الفقيد البشير خريف

رأيتك في الدّرب تقفو الاحبّةَ والموت كأسٌ عليهم تدار
سرت قبل أضعانهم بالتنائي ونادى مناديهمُ ثمّ ساروا
فما رفعوا للوداع شعارا ولا سلّموا بيد أو أشاروا
فيا لهف نفسي عليهم ! اذا ما اعتذرتُ ولم يجدني الاعتذارُ
ووَا حرّ قلبي بليل التشكّي ! اذا ما غزا جانحيّ الأُوارُ
طويتُ بساطَ اللقا بعد وَهْنٍ وما كان لي في الامور خيارُ
وأغضيت عن هاجس يتلظى وضاع بحلقي الحديث المثارُ
يميني تضمّدُ جرحَ الليالي وتمسحُ دمعَ عيوني اليَسارُ
أيا راحلا أينَ منك الرحيل !؟ ويا سائرا أين منك المَسارُ ؟!
ويا واردا أين منك الدّلاءُ !؟ ويا راميا أين منك الجمارُ !؟
رأيتك منْ وَهجِ الحرف تشكو وقد قلّ من لم يصبْه العِثارُ
بسطتَ لتونس ودّا سخيّا وغيرُك ودُّهمُ مستعارُ
وأعْطَيْتَ لَم تَتَطَلّبْ جزاءً سواءٌ لديك الحصَى والنُّضارُ
غنيت بزهدكَ وهو كبيرٌ وفي الزهدِ للعارفين دثارُ
فلم تستجبْ لنِداءِ القصُورِ ولا زان صدرَك يوما شِعارُ
وكنتَ كما أنتَ عِشتَ بسيطاً ومُتَّ بسيطاً وذاك اعتِبارُ
لانّ الظنون تصير يقينا اذا الموتُ جاء وصحّ القرارُ

محيي الدين خريف

البشير خريّف في ترجمة له

لحظة من احلام الفكر (*) تقتضي سنين من التحبير . فما بالك بحياة ! ولم يسمح لي الا بعدد من الكلم محدود . انا الذى لم اتعود احصاء هذرى على كل ، فاليك اهم ما مررت به .

ولدت سنة 1917 بنفطة ، من اب نفطي وام من العاصمة ، حيث حللنا سنة 1920 . فسكنا برحبة الغنم . وتدرج تعلمي من الكتاب الى المدرسة القرآنية الى المكتب العربي الفرنسي . واحرزت على الشهادة الابتدائية سنة 1932 .

في تلك الفترة ، تفتحت نفسي على الادب ، وبدأت ادون يومياتي وكتبت اول محاولاتي في القصة والشعر . في البيت ، كنا نقضي سهراتنا في تلاوة السيرة الحلبية ، والف ليلة ، ونتبارى في المساجلات الشعرية واللطائف الادبية ، وكنت احضر مجالس والدي مع احبابه في مجادلاتهم العلمية . فيدعوني لاناوله المعاجم والمراجع وكان اخي مصطفى يغريني بحفظ الشعر .

وفي المكتب ، كان مديرنا المسيو لاكروا يحدثنا ، كل ما سنحت دروس القراءة ، عن مؤلف النص ، ويلفت انظارنا الى محاسنه ، حتى اننا كنا نتقمص شخصيات اولائك المؤلفين . فمنا من جعل نفسه الفريد دي موسيه والآخر الفونس دوديه او فكتور هيقو ...

(*) وضع البشير خريف ترجمة له في يوم 29 فيفرى 1980 ننشرها للافادة .

ثم دخلت معهد العلوية ، فتتبعت دروسه نحو العامين ثم فصلت لضعفي في الرياضيات . فاصبت بصدمة نفسية ، اذ كنت ناجحا في المواد الاخرى . فكرهت الكتاب والكراس واختلفت الى المقاهي والجلسات ، وكانت تنتابني لحظات طويلة من الحيرة والفراغ اتساءل : ايمكن ان اعيش في كهف بجانب عين ماء ، بعيدا عن الناس ؟

وكان يؤم بيتنا ثلة من ادباء العصر من احباب اخي مصطفى كالشابي وعلي الدوعاجي والمهيدي والبشروش أيام مجلتي «الرسالة» «وابولو» ، ولقد تاثرت لتبرم الدوعاجي من انه لا يستطيع استعمال العامية خوفا من الجمهور المحافظ ، ولو امكنه ذلك لاتى بالعجب ، اذ ان العامية حية ، غنية ، واقعية .

واصبت بذات الصدر ، فاقمت برادس سنين للاستشفاء ، وقد مارست انشطة مختلفة قبل ذلك ، منها صناعة الشاشية وعلب الحلقوم وفي رادس انشأت براكة لبيع الليموناضة والكاسكروت توفي والدي سنة 1937 . واصدر اخي مصطفى جريدة «الدستور» فكلفني بتوزيعها ، ونشرت بها قصة قصيرة . «ليلة الوطية» .

وفي اواخر سبتمبر ، كنت مجتمعا مع رفقة لي من تلاميذ مدرسة الفلاحة ، (1) وكان موعد المناظرة لقبول الرعيل الجديد على الابواب فعلمت ان من شروط القبول فحصا طبيا يشهد بسلامة الجسم ، ثم ان صحبة هذه العصابة ، اظهرت توافقا في الطبع واثار حديث البلد اشجانا واشواقا ، فرغبت في متابعته . فشاركت وانخرطت معهم ، لكن ، في الاعمال الفلاحية جهد ، فاعتلت صحتي وتركت المدرسة .

تزوجت وانجبت اول اولادي . فكنت مارا ، ذات يوم من ايام اكتوبر ، بسوق العطارين ، حيث تزدحم الطلبة على جامع الزيتونة ومعهد الآداب والخلدونية ، فاخذني حماسهم ، وقلت في نفسي :

(1) اكثرهم من نفطة .

لى ولد سوف احتاج الى تتبع دروسه . فهل أبقى شبه الامى ؟ سألت احد الواقفين على الخلدونية عن شروط الانخراط فاجابنى لا شروط سوى الحضور مساء • فطلبت ترسيمى • وكنت أعمل كاتبا لمحام ، ثم اتخذت متجرا بسوق الحرير • وفى سنة 1947 التحقت بسلك المعلمين • وفى اول الخمسينيات ، اقتضى جدول عملى ان اباشر التلاميذ بعد الظهر • فبقيت حرا فى الضحى ، فملأت فراغى بمطالعة كتب التاريخ • واهتممت بسبب تسمية باب بنات فجرنى ذلك الى القرن العاشر ، قرن القرصنة والفروسية • فبدأت قصة فى الموضوع • فاتسع على نطاقها واستطالت وتشعبت فالغيتها • ولكن كانت لى بمثابة التدرب ، وحببت لى التفتيش فى الكتب ، فكنت اطرب لمطالعة نفس الحادثة يرويها مرجع تونسى وآخر اسبانى وثالث تركى وما بينهما من فروق •••

وكان المصيف سنة 1956 فى « الزهراء » فاستأجرت مغنى لاحد الفرنسيس الذين يقضون راحتهم بفرنسا • فتركه لنا كامل العدة بما فى ذلك مكتبة • فكنت انظر فيها حتى عثرت بقصة لجان جاك غوتييه فيها من الحرية والجرأة والصدق ما شفى نفسى • واستفاقت علتى واجبرت على راحة طويلة الامد ، فتلهيت بتصنيف قصتى «حبك درباني» وطبقت ما كان يتحرق اليه على الدوعاجى ولازلت ان شاء الله •

لقد حررت مرارا ، لبعض المؤسسات الادبية مثل هذه الترجمة الذاتية ، فما كانت احداها لتشبه الاخرى سوى فى الخطوط الكبيرة ! فعجبا للذاكرة وما يعن لها ان تنتقى من غابة الاحداث .

وعلى كل ، فقد كتبت ادبا لابن البلد • وليس لى الا أن أحمد ما قابلنى به ابن البلد •

البشير خريف

1 مارس 1980

البشير خريف عضو نادي القصة ...

بقلم : محمد العروسي المطوي

لا أدرى بالتحديد متى تعرفت على البشير خريف(1) تعرف النظر واللمس فهو لم يكن غائبا عن الذاكرة ، ولا مفقودا فى ساحة الابداع . لقد بدأ يحتل الساحة فى ميدان الفكر وأنا فى المشرق بعيد عن ربوع الآل والأحبة . ولكــن اللقاء فى مجالات الفكر « ومجلة الفكر » كان سلك الذهب الذى لم ينقطع . وكانت حلقات المذاكرة مع اخوة الحرف فى مناطق من ذلك المشرق قد جعلت صلتى بالبشير خريف وابداعه تأخذ حيزها البارز صنو أخيه « سيدى مصطفى » كان ذلك أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . حتى اذا شاء القدر أن يعود خط السير الى حيث ابتدأ انطلاقه ، واذا هى جولة فى سوق السرايرية على نغمات النقاشين واذا صوت مخملى حنون يجذبنى ويديرنى « .. مبروك .. مبروك يا سى لعروسى » والتفت . واذا هو البشير خريف يتربع الدكان جاذبا من عرعاره النفس الطويل كان صوته ذاك تهنئة بفوز رواية « حليمة » بجائزة البلدية مثل فـوز سبــق لرواية « برق الليل » منذ سنة مضت .. كان اللقاء ــ اذن ــ فى خريف ثلاث وستين وتسعمائة والف اذا لم تخن الذاكرة . وذلك التاريخ يعنى فترة مخاض لمولود جديد .. لقد انبعث النادى الثقافى (أبو القاسم الشابى) بالورديــة . وبدأ جمع من شداة الأدب وكتاب القصة يبحثون عما يجمع الشمل ، ويدعو الى الدفع ، ويقدم بلسما لجرح بليغ ما يزال فعلا .. انها التجربة الاولى التى انتهت بلا نتيجة . وكان العائق الاساس فقد الحضن الحانى ، والمكان الميســور ، فيه الحنان والدفء ، وفيه ما يشجع على العمل ، ويضمن الاستمرار . وتلقى رغبة

(1) قيلت فى أربعينيته يوم الجمعة 27 جانفى 1984 .

الشداة حسن الاستجابة من هيئة النادى الثقافى (أبو القاسم الشابى) فيولد نادى القصة فى خريف 1964 ليجمع الشمل ، ويحفز الهمة ، ويسدل الستار على آهة الحرمان ، وحرقة الخيبة .

وكان الرواد ثلة تتفاوت أعمارهم ، وتختلف اتجاهاتهم ، وتتنوع أساليبهم ومناهجهم . ولكن كل ذلك يمحى أمام هدف أزال التفاوت ، ووحد الغاية ، وقرب المناهج والاتجاهات .

كان البشير خريف أكبرنا سنا ، فكان رائد الجيل الاول من أعضاء هذا النادى وفيه محمد العروسى المطوى ، وعبد المجيد عطية ، والطاهر قيقة ، ومصطفى الفارسى ، وغيرهم وغيرهم . وكان يسندهم جيل ثان بدأ يشد من ثباته وعطائه منهم عز الدين المدنى ، ومحمد الصالح الجابرى ، ويحيى محمد ، ومحمد المختار جنات ، ومحمد منصور ، وأحمد الهرقام ، وحسن نصر وغيرهم وغيرهم . ثم جاء جيل سمير العيادى ومحمود بلعيد ، وأحمد ممو ، وعبد القادر بلحاج نصر ، وابراهيم بن مراد ، وعمر بن سالم،ومحمد الهادى بن صالح وغيرهم وغيرهم . وهكذا دواليك أجيال تتعاقب ، ومواهب تتفتح ، وأذهان تتفتق مما جعل هذا النادى يعتز بأعضائه ويعتزون به . وقد فتح لهم الباب لا فى مجال النادى ومجلته فقط ، بل فيما هو أوسع وأرحب .

وكان مؤسسو هذا النادى ورواده يمثلون ضربا من النضال والزهد فما بالك بشباب فى عنفوان الفتوة لا يرى جاذبية تشده الشد ، وتلح الالحاح ، فى ليلة الراحة الاسبوعية غير نادى القصة ، وما فيه من طرائف النكتة ، وحلاوةالدعابة لا سيما من قيدومه البشير خريف .

ويشهد الله أننى — على كثرة من عاشرت وخالطت من أعضائه على مختلف مشاربهم السياسية والمذهبية ، وعلى تنوع طرائقهم ومناهجهم الادبية — ما وجدت من لا يكن التقدير والاحترام للبشير خريف . يقينا أن ذلك ليس سهلا الحصول عليه . لكن ما جبل عليه البشير خريف من دماثة الخلق ولين العريكة جعله يفوز بذلك الشىء الصعب . وتلك منقبة من مناقبه الكثيرة لا تختص بنادى القصة بل تسع كامل محيطه ، ويعترف له بها كل من اتصل به وعاشره .

وكان له فى نادى القصة شىء آخر . انه ليس مجرد الرضى . انه الفضل .. الفضل الكبير الذى يذكر فيشكر . فى نادى القصة كنا نرى فيه أشياء كثيرة . وكنا نقول عنه الكثير .

كنا نكبر فيه أصالته فى الابداع والسلوك والجد والهزل .. وكنـا نعتبـر صمته أقوى من الكلام ، وأفصح من التعبير ، وأدق من الانشاء والتحرير .

وكنا لا نلح عليه فى أى عمل أو أى كلمة ، لاننا كنا نؤمن بعفويتـه الاصيلة المتأصلة ، وببراءته التى تبلغ حد السذاجة لأنها خلو من كل بهرج ، ونقية من كل زيـف .

تلك هى حاله بين أخلائه وأبنائه من نادى القصة . كان يقول لهم : المهم أن يسرج القنديل ، وتضىء الشمعة لأن فى ذلك سر البقاء . وكـان لا يهمه من حضر بقدر ما كان يهمه أن يفتح باب النادى . ومن يدرى ؟ .. فلعل النادى ـ لو سار على روتين النوادى وتحديد المسؤولية لأصيب بالاتكالية واللامبالاة ، وحتى تبادل « البونتوات » ، وذاك ما قضى على الكثير من النوادى والمؤسسات .

ولامر ما كانت مساهمة البشير خريـف فى أول عدد من مجلـة « قصص » فصلا من رواية « الدقلة فى عراجينها » . وفهم مؤسسو النادى ـ فى حينه ـ أن ذلك يرمز الى عدة أشياء .. انه كان يراعى بداية هذا النادى ، وهو ما يزال طريا رخوا ، لم يشتد عوده . ولم تبسق شجرته ، فقدم له « البسـرة » نـواة لنخلة باسقة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . انه الأمل يدفع بصاحب الابداع الى الايحاء بوجدان الشداة الى طلائع المستقبل العريض ، وآفاقه الواسعة .

انه لا يريد أن يحشو أفواه أولائك الشداة بما يحدث الغصة ، أو يخلـف الكظة فيكون كمن يداوى بالقاتل ، ويعالج بالمهلك .

وكان ذلك الأمر نسقا من حياة ، وشعبا من فلسفة نبضت من معين البشير خريف ، وانه لمعين وحده .

وتم ما شاءه البشير خريف ورجاه . واذا تلك البراعم زهـور تعطى البذور فتنبت الشجرة ، وتسمق ، وتعطى الثمرات . وانهم لكثر ملأوا الساحة ابداعا وشقوا الطريق لاحبا منارا .

وكان ذلك الامر غرسا صالحا فى خصب من التربة ، ونور مـن الشمس ، ورحيق من الزلال ، يمر عليه من الايام عشرون حولا .. وذلك فى عمر نوادينا غريب ، وفى حلقاتنا الادبية عجيب . ان نادى القصة يحتفـل هـذه السنـة بعشرينيته . ويسره أن يشهر عزمه هذا فى لقاء عرفان بالجميل ، وحفل من التقدير والاكبار لرائد من رواد القصة التونسية البشير خريف العضو المؤسس لنادى القصة بتونس .

وفى نطاق هذا العرفان نحيى هذه الاربعينية التى نرجو ألا تكـون توديعـا للبشير خريف بل أن تكون نقطة لاحيائه وجمع انتاجه ما نشر منه وما لم ينشر حتى يزداد عدد المنتفعين والدارسين بأدب ولأدب هذا المبدع الفنان ، والواهب بلا من ، بل حسبه أن يبعث بشذاه وأريجه لا يرى مردوده الوحيد الا فيما ينفع الناس ، ويروح عليهم ، ويبعث فيهم عبق النشوة ولذة الابتهاج .

ان واجبنا نحو البشير خريف وأضرابه واجب متأكد فعلينا أن نكون نقبل على انجازه وابرازه . وذلك أقل ما نفى به حق البشير خريف علينا ، وعلى أدبنا وثقافتنا . والله ولى التوفيق .

محمد العروسى المطوى

من مكتبة القصة التونسية

طريق المعصرة	محمد العروسى المطوى
كل شىء يشهـق	الناصر التومى
عائشـــه	البشير بن سلامه
حليمـه	محمد العروسى المطوى
الف لا شىء عليه	محفوظ الزعيبى
النفـق	رضوان الكونى

الدقلة في عراجينها

نظرات في الأسلوب

بقلم : عبد المجيد النفزي

قد يبدو ضروريا ونحن نتهيأ للحديث عن أسلوب رواية خريف « **الدقلة في عراجينها** » أن نحدد معنى هذه الكلمة ، خاصة وأن حداثتها بالنسبة للأدب العربي جعلت منها مفهوما يكاد يكون ضبابيا بعد أن سيطرت الدراسات البلاغية على « النقد » العربي قرونا .

وقد بدأ النقد العربي يتخلص بالتدرج من هيمنة البلاغة ، وانفتح على مناهج نقدية غربية ـ في انتظار أن يحيك منهجه الخاص به ـ وشهد فيما شهد تطور الدراسات اللغوية واعادة النظر في معطياتها .

إلا أن ذلك لم يمنع جفوة غريبة ، بين الأدب واللغة ، زادها حدة ما شهدته المدارس النقدية من هيمنة على المناهج رغم أن لا وجود للغة تصلح كموضوع للنقد الا ضمن تشكيلة ما ، هذه التشكيلة هي الأدب فهو هيكلها العظمى وعمادها وحاملها ، وفي معزل عن الأدب تكون اللغة مجرد نظام صوتي .. ومن هذه النافذة أمكن تطبيق الدراسات اللغوية على الأدب ، ونتج عن ذلك علم الأسلوب او الاسلوبية ، واقترح «الأسلوبيون» منهجهم كبديل للنقد الكلاسيكي، اقتباسا عن مبادىء اللسانيات . فدراسة الأسلوب تهتم حينئذ بالعلاقات الاستبدالية لأنها تشكل المادة الخام للأسلوب .

ما الأسلوب ؟ اتفقت كل التعريفات على أن الاسلوب موهبة لا يمكن تحديدها بسهولة ، ذلك أنه مرتبط بذات الانسان وخفاياه ، فيعرفه الناقد الفرنسي « رولان بارط » على أنه « دفق خالص نابع من ميتولوجيا الانسان » ،

ويعرفه « فردنيان دى سوسور » على أنه « حدث اجتماعى محض » ، وهكذا يتجاذب الاسلوب قطبان « الذاتى والاجتماعى » فهل هو عمل فردى أم حدث اجتماعى ؟

إن الاسلوب من حيث هو عمل فردى انعكاس للذات ، ذلك أن ما يبذله الفرد من مجهود للتعبير عن فكرة ما بموضوعية تامة يكاد يكون مستحيلا ، لأن الانسان عبد للذات ، ولا مناص عند التعبير عن فكرة من ادماج ذواتنا (1) ثم أن علاقتنا بالعالم تتأثر بالذات والشخصية بجميع مكوناتها لذلك فان سلوك البشر يختلف ازاء الحدث الواحد والفكرة الواحدة ، وأسلوب هذا الكاتب يختلف عن أسلوب الآخر .

والاسلوب من حيث هو حدث اجتماعى يعكس انتماء الفرد اللغوى والاجتماعى والايديولوجى ولعل الكاتب اذ يمارس فن القول يصطدم بهياكل المجتمع قبل أن يصطدم بهياكل اللغة ، فالتصرف فى الكلام تضبطه فى كل بيئة لا قواعد اللغة فقط ، بل وجملة من الاحكام السياسية والعقائدية والاخلاقية والادبية(2) فالأسلوب فى نهاية الامر عمل فردى خاضع لنواميس المجتمع، ينشأ بينهما صراع متصل يفرز ما عبر عنه « شارل بالى » « بالدفق العاطفى المحض » من ناحية ، والمشاعر الاجتماعية الناشئة من اعتبارات خارجة عن الذات .

اختيار أداة التعبير :

ازدوجت لغة خريف فى رواية « الدقلة فى عراجينها » ، فكانت عامية وفصحى ، عامية تحتل مواقع الحوار ، وفصحى تضطلع بالوصف والسرد وبقية أنماط الكلام . الا أن هذه القسمة ليست مطردة دوما ، فكثيرا ما يورد المؤلف خبرا بالعامية يلبسه بالفصحى ويدرجه فيها .

ـ وأخذ من كبوسه خيطا وميبرا (3) فالراوى يتجه الى القارىء باللهجةالعربية المتداولة التى يشترك فى فهمها الناس دون اعتبار لدرجة دراسية أو علمية ،

(1) انظر فى هذا الصدد ما كتب شارل بالى فى كتابه : « مبحث فى الاسلوبية الفرنسية » .
(2) الأستاذ توفيق بكار : « أسلوب رواية عرس الزين للطيب صالح ـ السنة الجامعية 78 ـ 79 .
(3) الدقلة فى عراجينها ص 13 .

وكأنه حريص على نقل بيئة الجريد كما هي في لغتها وأطوارها وبذاءتها مدعما بذلك ما أثقل به العرجون الاول من مقاطع تسجيلية (4) .

وعلى خلاق الطيب صالح في رواية « عرس الزين » الذي قال عنه الاستاذ بكار ان ازدواجية اللغة تحدث توترا داخليا على قدر المسافة الموجودة بين الخطاب الثقافي والخطاب اليومي فان خريف يحدث بين اللغتين انسجاما وتوادداً ، فالقارىء لا يشعر بتضاريس الكتابة غائصا في عمق القاموس العربي ولا طافيا على سطح العامية ، ولكنه يجري على اللغة رخاء غير شاعر بتبدل الألوان او التربة اللغوية .

وغاية هذا الاختيار ـ فيما يبدو ـ الملائمة بين أشخاص الرواية وبيئة الجريد ، حتى تتجذر الرواية في صلب الواقعية .

وأسلوب « الدقلة » لا يتوقف عند العامي والفصيح ، بل يتجاوز كل ذلك الى المعرب والدخيل كما ستبينه دراسة المستوى المعجمي .

(أ) المستوى المعجمي :

كثرت السجلات وتنوعت ، ولم تقتصر دراستنا على الالفاظ بل تجاوزتها الى بعض التراكيب المقتبسة من آثار مختلفة أهمها القرآن ، الا أن اهتمامنا بالعامية لا يتناول الحوار بل يقتصر على مواقع السرد او الوصف ، ذلك أن الحوار كله عامي .. قد تخرج مسؤوليته عن المؤلف ويتحملها الأشخاص .. أما ادراج العامية في الوصف والسرد وبقية أصناف الكلام فانه يمثل اختيارا فنيا يتحمله المؤلف ولا يشاركه فيه أحد من الأشخاص .

1) **الالفاظ الاجنبية :**

هي متنوعة الأصناف ، اذ نجد منها :

- **ملابس :** كاسكيته ، بالطو ، بريطة ، فيسته .
- **آلات وأدوات :** كرهبة ، برويطة ، مشينة ، تلفون
- **مهن :** كوافير ، فكتور ، شاف شانطي ، كنطابلي ، شاف لتقار

---

(4) انظر : الفكر : عدد خاص بأدب البشير خريف في دراسة لصاحب المقال : ع 8 ماي 1982 ص ١١١ .

ـ **صفـات :** ملاد ، مدام ، سوفاج ، بريمة ، تروازيام

ـ **محـلات :** الكافيشانطة ، البوسطـة ، لنقار ، القـاراج ، الكانطينـة ، الكوليـج

ـ **مأكولات ومشروبات :** بلانكيط ، بوفتيك ، ڤازوز ، كرام ، مكشتى

ـ **منظمات سياسية :** القامرة ، الصانتيكة

ـ **مصطلحات طبية :** الفازيتة ، الفاصمة ، زريقة ، ميكروب

ـ **الفاظ مختلفة :** فسفاط ، تريسيتي ، أنبوش ، كارط بسطال

أما لغاتها الاصلية فهى **الفرنسية غالبا والايطاليـة :** بريطـه (Beratta) الفاميليـا (La famiglia) البريمـه (Prima) القامـره (La Camera) الكارطـه (La carta) بيـرة (Birra)

وقد استعمل أكثر الالفاظ الاجنبية كما ينطق في لغته ، دخيلا ، مثل : لوزنج كارط بسطال ، قاراج .. وقليل منها اتخذ له وزنا عربيا .

وقد استعمل أكثر الالفاظ الاجنبية كما ينطق في لغته ، دخيلا ، مثل : لوزنج
وقد دل هذا التمازج المتنافر على أن هياكل اللغة لم تتكيف بلغة المحتـل وان اضطرت اليها ظروف الحياة الجديدة ، فهى لم تتبناها ولم تفسح لها من أوزانها ونظمها ولم تسمح لها بالانصهار فيها والالتحام بها .

وقد توزعت الالفاظ الاجنبية على أصناف الكلام بنسـب متفاوتة فكانـت بالسرد بنسبة 30 ٪ وبالوصف بنسبة 10 ٪ وبالحوار بنسبة 60 ٪ فالملاحظ أن النسبة كانت مرتفعة فى الحوار ذلك أن تأثير الحياة الجديدة فـرض على مستعملى اللغة أن يقتبسوا من لغة الدخيل ، وهذا يعكس عجز هياكـل اللغة عن استيعاب مظاهر الحياة الجديدة ، فكانت الكلمات الدخيلـة متعلقة عـلى الخصوص **بأدوات مستحدثة أو بمظاهر حضارية** لم يعهدها السكان ولم يوجدوا لها تسمية . اما النسبة بالسرد فكانت مرتفعة نسبيا وذلك يبرز مـدى قرب الراوى من أشخاصه على مستوى الاستعمال اللغوى ، فهو فرد منهم ، يتحد بهم ثقافة وتأثرا بالمحيط الحضارى والثقافى لكن ذلك الفارق فى النسبة يذكر أن الراوى مهما اشتدت الاسباب بينه وبين الاشخاص فان بينه وبينهم حاجزا فنيا يكرس انتماءه الى نخبة مثقفة متعالية ، مترفعة عن لغة العامة بما فيها الدخيل وأكثر انصياعا لحرمات المجتمع اللغـوى ، الا أن الراوى ، وهـو يعالج هـذه

المحظورات ، ويستبيح لنفسه 30 ٪ من الدخيل فى السرد يحمل مسؤوليتها الاشخاص ونظام المجتمع ، ذلك أنه يورد أخبارا تتعلق بالاشخاص ونمط حياتهم بدعوى الامانة الادبية وتحت حصانة الواقعية ، واذ ترفع عنه هذه الحصانة وينبرى للانشاء كالتعليق والوصف يبدو أكثر احتشاما ، فلا يستعمل من الدخيل الا القليل (10 ٪) .

2 ـ القاموس القرآنى :

يندرج القاموس القرآنى ضمن العلاقات الدالة على تواجد المؤلف ، ويعكس نمط الثقافة التى تلقاها وجانبا من ايديولوجيته المتمثلة فى التأثر الدينى واستعمال القرآن كمنهل لغوى بحيث أن القرآن تجاوز عنده حدود الكتاب المقدس الذى يتلى فى ظروف خاصة الى حيز الرصيد اللغوى المستعمل .

ثم إن تواجد العامية والمفردات الاجنبية مع قاموس قرآنى هام يدل على تنوع فى الرصيد اللغوى ، بين ما تصنع البيئة من أشكال تعبيرية ، بين ما تأتى به الحياة الجديدة فى ظل الاستعمار وبين ما توفره الثقافة التقليدية من أساليب تعبيرية انصهرت كلها فى بوتقة واحدة ضمن أثر ملون على مستوى المادة اللغوية وقد تواجدت الآيات القرآنية فى الرواية على ثلاثة أشكال هى الاقتباس والادراج والاقتباس بالقلب والتصرف ، وتوزعت على السرد والوصف والحوار .

3 ـ القاموس الجنسى :

وفير ، يكشف عن طاقة شبقية هامة ، متنوع من حيث اللغة الدالة عليه اذ تراوحت بين الايحاء المستتر والتصريح الفاضح ، وبين الوصف والفعل ، وبين « الجنس المتحرك » و « الجنس الجامد » وبين الجنس السوى والشذوذ الجنسى وتشترك الحواس كلها ـ أو تكاد ـ فى بلورة الاحساس الجنسى ، وقد تدرج المجاز الجنسى من أعلى الجسد الى أسفله بطريقة سينمائية واعتمد على ابراز الالوان كالسواد والحمرة والنصاعة وعلى ابراز الشكل كالاستدارة والاستطالة والشفافية ، كما يلاحظ اهتمام تدرجى من الاعضاء ذات الاهمية الجنسية القليلة الى اعضاء ذات أهمية اكبر (وصف العجوز بنت باسى للعطراء الدقلة ص 102) . أما مراجع المجاز فقد كانت البيئة الريفية والبيئة المنزلية . والجدير بالملاحظة أن هذه المجازات يقدمها المؤلف على لسان احدى الشخصيات هى العجوز بنت باسى ، وتستمدها كامرأة ريفية ، من بيئتها الفلاحية ومن البيت ، وهكذا يشارك بعض الاشخاص فى المجهود التأليفى .

وأما الوصف فثابت ومتحرك ، وكثيرا ما يساهم الثوب فى بلـورة الاعضاء ذات المدلول الجنسى عندما تكون هذه الاعضاء فى حالة حركة ، وكثيرا ما يبقى العمل الجنسى فى مستوى الحواس كالنظر واللمس ، وتخيل الذوق ، والشم وفى الحالات القليلة التى يتعدى مستوى الحواس الى العمل الفعلى يوارىالراوى الحدث بفنون من البلاغة أو التنقيط : (أخذها أخذة رابية ص 331 ، واستسلما للطبع دون تحفظ ص 343 ، ثم انها دفعته بعيدا عنها ص 292) .

أما الشذوذ الجنسى فقد تحدث عنه فى شكل تماثل جنسى لم يتعد الحواس كالنظر واللمس أو ابداء الاعجاب والتقبيل (غرسة ـ العطراء) أو فى شكل فاحشـة (Perversion) : (ثم رأته يقوم الى بنية ويمسكها ويمرس مواضع نهديها ص 424 ـ يريد أن يحملها ما لا قبل لها به ص 377) .

4) أدوات :

الالفاظ الدالة على أدوات معربة أو دخيلة : (بابور ، تلفـون ، بالـة ..) والبعض أوجدت له تسمية عربية (كلاب ، جهاز ، مغنية ، فياقـة ، عجلـة ، مقود) والملاحظ أن الكلمات المعربة يسهل نطقها فى لغتها الاصلية لذلك احتفظ بها دون ادخال تغيير عميق عليها (بابور ، بالة) فى حين سهل النطق العربى لكلمات ذات تسمية عربية ففضل على أسمائها الاجنبية (كلاب ـ توناى) ..

5 ـ الادارة ، السياسة ، الاقتصاد ، الفلسفة :

فى هذا المضمار ، نجد أن الالفاظ متنوعة : (مدير المكتب ، رئيس البلدية ، القائد ، تشريفاتية ، وكالة أخبار ، بورصة أسعار ، تقدميـة ، وجوديـة ..) وهى ألفاظ حديثة أبدعها الوجود الاستعمارى وليس لها مكان فى سوى السرد وتجسم مظهرا من مظاهر التواجد للراوى على الساحة الروائية ، وشكـلا من أشكال الاستعلاء اذ لا نرى واحدا من الاشخاص يستعملها وان كـان لبعضهم اتصال بمضمونها ، فهو اتصال غير واع ولا مسؤول ، ويؤكد هذا على المساحة الثقافية التى تفصل الراوى عن أشخاصه ، والمتجلية فى قدرته ـ وعجزهم ـ على التنظير واطلاعه التسموى .

أما قلة المصطلح السياسى فدليل على غياب تسيس النـاس ودليـل عـلى اهتمامهم بحاجياتهم القريبة الملحة ، فالسياسة ترف فكرى من شأن «الموسرين» مثل سى العروسى المعلم ، والفقرة التى أدرجها المؤلف متحدثا عـن الحركـة القومية لم تكن لها بالاشخاص ولا بالاحداث صلة ، ولكنها عادة درج عليها كتاب فترة التأليف وتمثلت فى تطعيم ما يكتبون بما تيسر من تاريخ الحركة الوطنية ليدرجوا مؤلفاتهم ضمن « الأدب المناضل » .

6) المصطلح القضائي :

المصطلح القضائي كثيف ومتنوع منه القديم المستمد من الفقه الاسلامي : (مجلس شرعي ، كفالة ، القيام بالرزق ، محاسبة) ومنه الحديث المقتبس من النظام القضائي الحديث (محكمة ، تصرف ، استئناف ، توكيل مفوض) أو متعلق باجراءات ادارية وقضائية (محاسبة ، تقييد المخلف ، رفع اليد ..) أو بهياكل عدلية (مجلس عدلي ، مجلس شرعي ، مكاتب عدول) .

أما وظيفة المصطلح القضائي فتبين صلة الناس بالهياكل القضائية ، وتنوع هذه المصطلحات قد يعكس صلة الناس فيما بينهم ، علاقة فيها خصام ومطالبة كثيرة وتناحر على المكسب المادي ، مجتمع مادي ، وتصلب في المواقف واضطرار الى احتكام تسوده الرشوة والحيف .

7) المصطلح العلمي والتقني :

كثير الحضور رغم تبدي الرواية .. مزيج من ذكريات الحرب الكبرى (غاز مختنق مدافع الخمسة والسبعين ، مرآة الكشف) ومن وسائل النقل الحديثة (الطائرة ، القطار ، الكرهبة) : تأثيرات العلم الحديثة بدأت تتسرب في مظاهر الحياة العامة لكن بين أكثر المظاهر الحضارية وبين السكان وحياتهم اليومية جفاء ، فاضطراب « حفة » وزوجته ابان السفر ، وحادثة السفر نفسها وما اكتسته من أهمية دليل على أن ظاهرة السفر ووسائله أمر غريب على الحياة اليومية .

8) مصطلح الطبيعة :

مستمد من بيئة الصحراء : (رمال ، هضاب ، شمس ، حرارة ، لفح ، جبل أجرد ، أودية قفراء) وبيئة الجريد (نخل أخضر ، غابة ، عيون) ، متعلق ببعض الفصول ومراحل اليوم ، ويؤطر الزمان والمكان مصطلح الطبيعة ، لكن عنصر الزمان مطلق في التاريخ .

9) المصطلح النفسي :

متعلق بالحب وما شابهه (حب ، حنو ، عاشق ، سعادة ..) أو بالسلوك البشري (مكر ، خبث ، متزمت ، ثقيل ..) أو بأوضاع نفسانية (حزين ، وحشة ، طرب ..) او بصفات انسانية (كذوب ، نفاق ، خبث ..) أما وظيفته فبلورة سلوك الاشخاص وأغلبه يفيدنا به الراوي على لسانه أو لسان الاشخاص .

10) المصطلح الديني :

كثير ، ومتنوع منه ما يتعلق بالاسلام (مسجد ، قرآن ، منبر ..) ومنه ما يتعلق بالمسيحية (كنيسة ، قس ، قداس ، لاهوت ، ناسوت) أو بمظاهر طقوسية (آذان ، بسملة ، قنوت ، أدعية ، صوم ..) أو بأماكن العبادة (مسجد جامع ، كنسية) أو بأشخاص ذوي وظيفة دينية (مؤذن ، امام ..) ونجد ضمن هذا القاموس مصطلحات قرآنية (قرآن ، سورة ، حزب ، آية ..) وأخرى ما ورائية (العوالم العلوية ، الروح القدس ، نجاة الروح، شجرة المنتهى) وأخرى متعلقة بالصوفية والاسلام الخرافي (رسائل اخوان الصفا ، التصوف ، اللاهوت ، الصناجق ، البركة ، سيدي ..)

ويبدو أن للدين سيطرة على مختلف جوانب الحياة ، فنلاحظ اسلاما خرافيا واسلاما طقوسيا وآخر تعليميا ، وتتعايش هذه الاصناف دون تنافر . وهذا التعايش السلمي يدل على أن الدين ، على انتشاره بمختلف مظاهره ، لا يعيشه الناس بعمق عاطفي اعتقادي ، بل هو مظهر عادي من مظاهر حياتهم ، منزلته عندهم أقل من منزلة بضع نخلات او عين ماء ، ومن مظاهر خفة الدين ان الشخص الواحد يمكن أن ينتمي الى هذا الصنف وذاك في آن واحد ، فالمكي « المثقف » مثلا ، يؤم الصلاة ويتردد على مجالس العلم ، ويختلف الى الكوليج العصري وينصرف الى جامع سيدي عبد العالي ، ويدعو أجداده الصالحين ليبلو كرامتهم .

11 ـ الواقع والرمز :

تحتوي الرواية على بعض مظاهر الرمز يندرج عموما في الجانب الوجودي للأشخاص ، ومن هذه المظاهر ما يمليه السكر ومنه ما تسطره يد علوية هي الله او القدر ، فتتشابه الحالات والظروف والازمنة والاحداث وحتى المظاهر الركحية ومتطلبات الاخراج ، وفي حالات من الرمز تشترك الطبيعة في الاشارة الى مصير الانسان وتتخذ منطلقا للتفكير الماورائي مجسمة لمصير الانسان في مغامرته الوجودية ، فالجذع الملقى في الوادي ليس الا جثمان خديجة المسجى في جدث ، واذ يتساءل المكي عما طرح ذلك الجذع انما يتساءل عن كنه مصير أمه (أو مصير الانسان عموما) (الدقلة ص 122) ولكنه تساؤل ساذج ، تقليدي خطر للمكي بمناسبة ، ولكن الرواية ـ كعرض لنظام الحياة القروية البسيطة ـ لا يمكن ان تطرح من التساؤل ـ على لسان الاشخاص ـ ما لا يتناسب ومستواهم العقلي ، الا أن الناحية التراجيدية في رواية خريف يتمثل في هذه المساواة

العجيبة بين الحب والموت ، بين الوجود والعدم : ليلتان من حياة العطراء تشابهتا أو على الاصح تجانستا ، ليلة حب وليلة موت :

	الليلة الاولى (فى قفصة) : الاختلاء بالمحبوب	الليلة الثانية (فى نفطة) الاختلاء بالموت
المحيط البشرى	الجماعة تلكمتوا ورقدوا ص 434	نامت الرفيقات الواحدة تلو الاخرى ص 447
تهيئة المحيط الخارجي	قل السمار ، وفرغ الشارع ولم يبق الا معتوه القرية يهذى ص 435	عم السكون وهبت نسمة من الجر تحمل صوت المغنين من السكارى ص 447
وحدة المناخ	لاطف وجهيهما نسيم أزرق منعش ص 435	وهبت نسمة من الجر ص 447
وحدة المنبه العاطفى	.. وصوت المغنية يبعد ويقرب مع النسمة وعبد الوهاب يعيد ويكرر : مشيت أنوح والليل ساحرنى ص 435	استمعت الى الاغنية التى يردد فيها عبد الوهاب امشيت أنوح والليل ساحرنى ص 447
وحدة المحيط الطبيعي	وأجالت بصرها فى السماء ص 435	واتسعتا (عيناها) فى السماء والنجوم تلصف ص 447
حضور المحب	هو ذا معبودها صار عبدا لها وهاهى ذا تحيى ليلة عمرها ص 435	فى ذلك الفناء حيث كانت تخرج فى العشية تناجى المكي : ص 447
تشابه المصير فى الليلتين	ـ أنا عارفة، لى سنين ومنين نرجى فى ها الليلة ، ونعرف الىلفراقها الصباح ص 437	وعندما سكت آخر سكير وطلع المؤذن يتهجد .. ماتت ص 448 .

(ب) أصناف الكلام وخصائصه التركيبية :

الخطاب ، فضلا عن الخطاب الأدبي ـ يتكون من أنماط مختلفة تتعاضد كلها على بلوغ غايته التى هى الابلاغ، وابراز صورة عن المدلول أكثر وضوحا، لذلك فرواية « الدقلة » كخطاب أدبى تركبت من أصناف من الكلام ، ولكل صنف وظيفته ، وخصائصه التركيبية .

السـرد هو حكاية الافعال واخبار عنها ، وظيفته فى الروايـة اعلامى من وجهة نظر الراوى على طول الرواية ، وجمالى بمظاهر البلاغية ، واضح الشكل له علامات لغوية تدل عليه وتعلن حضوره ، أفعاله ماضية عمومـا ، مسند الى ضمير الغائب ، متميز بذلك عن الوصف والحوار والاستطراد .

وأغلب جمله فعلية ، متوسطة الطول ، مركبة أحيانا :

« وصبت العطراء الماء فى آنية تضع فيها خديجة دراهمها » ص 95 .

وقد تتعقد وتطول أحيانا :

« وكان يتأثر شديد التأثر عند انشاد سى الطيب بالازهارى من صيحات عمر بن الفارض الخالدة أيام تيهه بوادى المستضعفين فى سفح جبـل المقطم :

قف بالديار وحي الاربع الدرسا وناد‍هـا فساها أن تجيب عسى

ص 131 » .

أو يثقلها الوصف : وقد لجأت فى اعداد المائدة الى أفخـر الاسفاط الـتى يزينون بها الحائط ص 95 . «وسبح الله الذى أوكل للصناع من ملائكته» ص 195.

وتكثر فى السرد الجمل النعتية : فخف اليه شاب لم يتفطن لوجـوده بين العملة » ص 194 .

وقد تتعاقب الجمل الفعلية القصيرة فى سرعة تلغرافية :

« نزل العربى الى الواد ، وغسل الليفة وعصرها ، وسد بها الباطية ، وحفر لها فى الرمل ، وتكاها ، وأخذ طويسا ، وأمال عليه الباطية » ص 169 .

وتشترك الجمل الاسمية فى عملية السرد ، وهى فى الغالب منسوخة :

كان يحب السير فجرا ، ص 9 ، كان يرجو أن يرى هذا الطير ص 11 .

وتتنوع نماذج الجمل ، فنجد الجمل التلازمية ، شرطية أو ظرفية :

فان مات ، ترث النصف عن أبيها ص 223 ، كلما وقف بحضرتها تلخبط فى أمره ص 228 .

والاعتراضية : فلما كان الليل أعد المائدة ــ وكان مفلسا ــ فانفق على نفسه بسخاء ص 228 .

والمختزلة : المقبل على السوق والعائد من الغابة : بكم أصبح البسر الحلو ؟ ص 15 .

والتفسيرية : اللويحة أو المسيحة : يقصد أن جده حدد لهم أسباب الرزق ص 92 . وهكذا فقد ألم السرد ــ أوكاد ــ بكل أنواع الجملة العربية وبنياتها ، واختار المزج بين البساطة والتعقد فى التعبير ، فبجانب تلبيس الفصحى بالعامية واختيار الجمل الفعلية القصيرة ، نجد الجمل المعقدة التركيب من تركب وتلازم واختزال : توزع بين النماذج الحديثة فى الكتابة وبين نماذج اللغة الكلاسيكية المستمدة من القرآن والآثار القديمة ، توزع بين « التدلى » الى الواقع المعاش باقتصاده اللغوى وبساطة تعبيره ومباشرة لفته وبين «التحليق» فى علياء الثقافة والتميز عن العامة بميزة العلم والانتماء الى « الخاصة » العلمية.

الوصف هو حكاية الاحوال يقدم حسب وجهة نظر ما ، قد تكون للراوى ومن ورائه المؤلف أو حسب وجهة نظر أحد الاشخاص ، وقد تنوعت مواضيعه وأشكاله وأحجامه ووظائفه ، فشكل **بطانة للسرد** : «فرش برنوسه، وأجلس البنية .. وكان زيتى اللون طويلا نحيفا ، كور ثيابه وحشاها بين فخذيه .. ص 28 » . فهو فى هذا الموضع قصير ، لا يتعدى الجملة أو بعض الجملة ، وظيفته الابانة عن حالة الموضوع إبان قيامه بالحدث أو وقوعه عليه . وقد يقدم فى شكل **مشاهد سريعة** (فلاش) يجهز لها ناظر يقوم بدور آلة التصوير ، وتهيأ لها أسباب السرعة ، روائيا ، كمرور المكى أمام خيمة المغاربة (ص 337) أو استراق العطراء النظر من فجوات حجبها ، خلسة عن زوجها ، لترى عاملى سكة الحديد ، وكثيرا ما تبدأ هذه المشاهد السريعة بجمل اسمية ، تعزلها عن حركية السرد ، وتنتفى منها الافعال أو تكاد، وتعوض بأسماء فواعل«متوسدين مرافقهم ، براد عروته سلك مفتول ، رجل منحن على سنيطره يهرش جوفها..» ص 337 ، والافعال المتواجدة تدل على استمرارية الزمن وركود الحركة : « ينامون ، ترن بلحن ممدود ، الشاب يشكو ورفيقه يوصيه بالصبر..ص 386»

« تراكم عليها الغبار » ص 211 .. وقد يأتي الوصف في **شكل لوحات** تتهيأ لها أسباب المتأني والملاحظة الدقيقة كأن تكون خديجة جالسة تنظر في ما أحدث من تغيير في بيت أخيها (ص 37 ، 39) ويقدم لنا الوصف في هذه الحالة اطارا عاما للأحداث ، يراه الراوي في غير تفصيل ولا دقة ، « وكانت الجبانة وسط البلد تحيط بها الطرقات الرئيسية التي تصل بين السوق اللوطاني وسوق البياضة » ص 121 ، أو جزءا من هذا الاطار كما يراه الاشخاص ، يعتمد الدقة والتجزئة ، وتمثل الاشياء الموصوفة عنصر « ديكور » للاطار العام ، كأن تتأمل خديجة صورة معلقة بدار أخيها (ص 39) أو ينظر حريف الى زينة بدكان الحلاق (ص 140) .

وقد يحل الراوي أحيانا بمسرح الاحداث ، قبل وصول الاشخاص ويقدم المكان للقارىء ، كمشاهد يرفع أمامه الستار ليدقق النظر في الركح قبل حلول الممثلين ، وأحيانا يجلس الراوي بين « المتفرجين » وينتظر أن يبدأ التمثيل ثم يشرح المشاهد ويحللها (ص 39) .

ففي الصنف الاول يكون الوصف من وجهة نظر الراوي ، موضوعيا ، بعيدا عن عواطف الاشخاص وانفعالاتهم اذ هو يهيء لعمل مادي ما ، يقومون به ، كمعاينة المكي لمنزله الجديد : «أمام الدار مجاز طويل مسقف بالقرمود» ص 211 أما في الصنف الثاني فيكون الوصف من وجهة نظر الاشخاص ، قريبا من عواطفهم وأحاسيسهم ، يهيء لدفق من الانفعالات والاحلام والافكار : « وفي وسط البستان فسقية عليها زوج من الطاووس،أحدهما فاتح ذيله والآخريلاطفه بمنقاره ، وعلى البعد بحر وجبال ووراء القصر غابة في جوها ملائكة الحب .. قال لزوجته : اتفقنا ، أنا على دروج الرخام ، وأنت معايا ، متكئة على المحبس » .. ص 39 .

قاموس الوصف ، في قاموس الوصف ظاهرة واضحة هي كثرة الاوصاف المادية المحسوسة ، وقلة الاوصاف المعنوية ، وقد تنوعت في حجمها ونوعها بين اللفظة الواحدة واللفظتين والجملة ، وتعلقت الاوصاف المادية بحالةالموصوف أو بلونه .. أما مادتها الصرفية ، فقد كانت صفات مشبهة ، أو تراكيب اضافية (قصير القامة .. أخضر العينين ، كثير اللعاب ..) أما الاوصاف المعنوية القليلة ، فقد تعلقت بصفات أخلاقية أو بحالة نفسية ، وأما مراجع الاوصاف فمتنوعة ، فيها الفلاحي والاخلاقي .. وهو ما يتاح لنا الحديث عنه في القسم الموالي من هذا البحث ، وهو المستوى البلاغي .

(ج) المستـوى البـلاغي :

تعرف كتب البلاغة المجاز على أنه لفظ استعمل في غيرما وضع له ، فالمجاز ، مبدئيا ، هو خروج عن عوائد اللغة ، وحرية أخرى ، بعد الاسلوب ، مكتسبة ضد قواعد اللغة ، هو درجة قصوى من درجات الانشائية ، تقصد للغاية الجمالية خصوصا .

① مصـادر المجـازات ومراجعهـا :

تنوعت مصادر المجاز ، فكانت منبثقة من الحواس كالبصر واللمس والسمع، واشتراك اغلب الحواس في اصدار الصور المجازية نزعة مادية تزيـد الرواية التصاقا بالواقع والمحيط المادي،واستمد المؤلف بعض صوره من **الثقافة**،كالتاريخ (كأنه هرم صغير ص 420) **والانتروبولوجيا** : (تقدح به النار كما يفعل رجل العصر الحجري ص 28) **والفنون** : (ولبثت لحظة كأنها صنم اغريقي من المرمر الابيض ص 130) **والجغرافيا** (قبة سيدي بو علي لنفطة .. كصومعـة ايفيـل لباريس ص 217) وهكذا ، فالمؤلف يستمد صوره البلاغية من الثقافة القديمة خصوصا ، وفي ذلك حضور مباشر له ، وافراز لبعض جوانب شخصيته .

أما **مراجع المجاز** فيكثر فيها الحيوان ، ونجد ضمنها **حيوانات صحراوية** : (بعير ، غزال ، نعام ..) **وحيوانات غابية** (فيل ـ غوريلا ..) **وأخرى مائية** (أوز ، سمكة ..) **وحيوانات أهلية** : (فرس ، ثور ، كبش ..) أو **دواجـن** (دجاجة ..) وهكذا فان قاموس الحيوان يحيلنا على أماكن جغرافية وأوساط مناخية مختلفة تخرج بالرواية من نطاق المحلية الضيقة الى حيز واسع ، حتى كاد عالم الرواية أن ينسحب على الارض كلها ، فنجد من الهند بعض تقاليده ومن أوربا ما يشبه معالم القرية ومن إفريقيا بعض حيواناتها ومن اليونان أشباه تماثيله ، والرواية كما سبق ضرب في عمق التاريخ وفرار من حصار الزمن ، عبر ثقافة المؤلف ، فهي ـ وان كانت ملتصقة ببيئة الجريد في مشاكلها ولغتها ، تعالجها على مستوى الوعي الجماعي ـ فان المستوى البلاغي يجذر تلك المشاكل في أعماق اللاوعي الجماعي كذلك ، عائدا بها الى مرحلة بائـدة مـن الوجـود الانساني .

واذا كانت القرية تفرض على المكان حالة الحصار ، وتعاقب من ينفلت منها بالموت (المكي ـ العطراء) أو بالاضمحلال أو بانزال عاهة .. فان الانعتاق من

هذا الحصار يتم عبر ثقافة المؤلف ، وما يقال عن الاشخاص ينسحب كذلك على المؤلف اذ الكتابة فيما يبدو ، انقطاع عن الواقع الى العالم المرجعي وانحباس فيه وهو عالم تصنعه الاحلام وتزوقه التصورات، يعيشه المؤلف ـ والقرية ـ بنظمها وأخلاقها ، وكأنها تبعث من جديد ، فتتحدث عن نفسها وتروى قصتها .

② **الطبيعــــة :**

لا تبدو الصحراء واضحة التقاسيم فى ما يتعلق بالطبيعة من صور البلاغة فنجد : نباتا قد لا ينتسب للصحراء (اجاص، نوار، ورد، قمح..) أو حيوانات قد لا تنتسب للصحراء ، وحيوانات صحراوية .

أما الصور البلاغية فهى جامدة أو متحركة (اجاصة تسعى .. قطعة خشب ميت ..) وهكذا فان قاموس الطبيعة فى الصور البلاغية ضحل لا يتناسب مع تأصل الرواية فى المكان ، وعلى عكس الطبيعة كان الانسان كثيف الحضور فى مصادر التشابيه والصور المجازية عموما .

وعلى مستوى الشكل نجد حضوره فى شكل صفات مفردة (مسافر ، حسناء أجرب) أو فى شكل جمل موصولة (من عضد بحديدة حادة) ص II5 ، وتعلقت الصفات بأعمال يقوم بها الانسان (القائد ، اللص ، العريس) أو حالات يتصف بها ، وقد يتعلق محور المجاز بجزء أو بعضو من الجسم (كأنــه عيــن ذهــب انسانها) (كأن عين الزقاق مغمضة) فالانسان مصدر البلاغــة وموضوعهــا ونشاطه مصدر شعرى ، ومحور تحوم حوله الافكار .

③ **محــاور المجــاز :**

استأثر بها الانسان فسبعون بالمائة من مجموع الصور البلاغيــة محورهــا آدميون ، وقد تنوع الاهتمام بالانسان الى حد تجزئته وتشريحه ، فتراوح محور الصور البلاغية من الجسم ككتلة بلا ملامح الى الاعضاء ، وما يصدر عن الجسم من أصوات وما يحمل من ملابس وما يحدث له من الحالات أمــا الطبيعــة فلم تشكل محورا هاما فى التشابيه وصور المجاز وقد اعتمدت هذه الصــور عــلى الحواس ، وعلى البصر خصوصا ، مشكلة بذلك مزيجا من الالوان منها الاحمر والاخضر ، وهو تقارب تقليدى مستمد من الميتولوجيا التونسيــة ، والابيض والاسود (الشقرة والسمرة) وهو تنافر يبرز كلا اللونين عند تقاربهما .

وكانت أوجه الشبه مركزة خصوصا على التقارب فى الشكل ، والتشابه فى اللون ، والتجانس فى الحركة والتأثير ..

④ وظـائف المجـازات :

وظائف المجازات **تجسيم حالة معنوية فى مشاهد محسوسـة :** (تركـت الظلمة تغمر الحجرات وهى ثابتة البصر متدلية اليدين كمسافر تركته القافلة ص 174) **أو التقارب بين صورتين محسوستين** ، ومحصول الصور البلاغيـة فى هذا المضمار ضئيل (وسار بخطى عائمة كأنه فى الماء ص 52) .

وقد **نجد التشابيه الكريكاتية المجردة** التى لا تحمـل شحنـة انفعـالية ، نصيبها من الموضوعية أكثر مما فيه من ذاتيـة ، ذلـك أن الشخص الموصـوف لا يمثل طرف اصطدام مع طرف روائى آخر (حمة الصالح) : (فظهرت رجلاه طويلتين جافتين مغبرتين كأنهمـا قطعتى خشب ميـت ص 28) **والتشابيـه الكريكاتية الذاتية** ، وهى تحمـل شحنة انفعالية ، اذ ان المشبه يمثـل طرفـا عاطفيا فى قضية ما ، فقد تكون هذه العاطفة اشفاقا (تسحته الكبانية كالبعير الشارف ص 191) أو سخطا (بشرته رقيقة حمراء كوجه كلب مسلوخ ص 194) ويتجلى منها التأثر العاطفى للمؤلف (كصاحب الانشاء) بوجهة نظر الاشخاص فيشاركهم عواطفهم .

ونجد كذلك الكاريكاتور التشويهى وهو قليل الجدية ، لغو يتبادله العملة السكارى : (وجهك بحال حكة مغفصة ص 244) **والكاريكاتور المسخى : غايته** تصوير حالة من الحرج والاشفاق من ولوج المحل العمومى : (خرج اليه رجل كالغوريلا ص 285) **وتهدف المجازات أحيانا الى غاية جمالية :** (علقت بشحمتيها قطرتا ماء وجعلتا تترقرقان ، فرأى أجمل اللآلى ص 104) **والى التصعيد الجنسى للمؤلف :** (الدخان يتلاشى كما يتلاشى شعر حسناء سابحة ص 205) (وتفتحت شفتاها عن مثل لوز صغير مقشور ص 265) .

⑤ الاشعـــــار :

تضمنت الرواية أشعارا وردت بالفصحى حينا وبالعامية حينا آخـر وقـد تضمنها السرد ، والمقاطع التسجيلية ، والاستطـراد ، واوردت روايـة عـن الاشخاص أو عن شعراء قدامى ، أو مما يتداوله الناس أما وظائفها فهى **مرجعية** (ص 83) **أو وصفية** تقدم مجالس الشعر ومناسبات التهـاجى (ص 98) **أو أدبية** تبرز نوعا من التداعى لدى المؤلف ، اذ تذكره حالة أو حادثة مـن العالم

الروائي بشيء من محفوظاته الادبية ص 137) **او مترجمة عما بدواخل الاشخاص** (ص 203) .

⑥ خاتمة القول في الأسلوب :

« كل مجتمع يشرع أحكاما تضبط الحد بين ما يجوز وما لا يجوز من القول ذلك أن له حرمات ينهى عن الخوض فيها الا عن سبيل الاحترام والتمجيد ، وتشكل هذه الاحكام الظروف الموضوعية للكتابة .. وموقف المؤلف ، اما أن يكون موقف انصياع ، ايمانا أو حذرا ، وإما موقف تحد نقضا أو تمردا، واما موقف بين بين ، يعالج المنع بأفانين من الحيل والكلام (*) .

ومن أولى مقدسات المجتمع اللغة ، لا رتباطها بظاهرة الدين واكتسابها ما له من قداسة ، حتى أصبحت قوانينها لا تحرف ، وأسقطت عليها مبادىء المثالية والفلسفة ، حين امتزج الدين بالفلسفة أو تعامل معها بوجه من الوجوه،وموقف خريف من اللغة تجاوز محاذير الفصاحة ونقاء اللغة ، فهو قد اختار المزج بين عامية وفصحى وحاول اكساب العامية « أدبية » خاصة متدرجا بها من وظيفة الابلاغ الضيقة الى درجة الانشاء ، فأتى فيها ببعض مظاهر البلاغة وأناط بها مهمة الافصاح عن بعض العواطف والافكار ، الا أن اكثار خريف من استعمال العامية في المقاطع الحوارية وفي الوصف والسرد أحيانا قد يضيق على الرواية سبل الانتشار في العالم العربي ويفسد عليها عند من يأنفون من ادماج العامية في الادب بدعوى الاضرار بالقومية العربية والتشجيع على المحلية والانعزال أو بدعوى افساد الذوق الأدبي ، والاضرار بالأدب العربي عموما وذلك بالصاقه بالمشيكلات المحلية وعدم تجاوزها الى مستوى راق انسانيا ، يتجاوز البيئة الجغرافية والحيز التاريخي .

ونعيب الاخلاق على رواية « الدقلة » طلاقة في سوق الهجين من القول مما يتلفظ به الاشخاص ، أو في عرض ما يقومون به من أعمال جنسية ، ونلمس من ذلك تحديا سافرا لأخلاق الكتابة اذ « نزل » المؤلف بقلمه الى أماكن تحجر الكتابة فيها ، وتطويها الاخلاق في دفتر النسيان كالحانات والمحل العمومي ، عورة المجتمع ، وتتحدد بذلك علاقة المؤلف بالاخلاق ، فهو فاضح تناقضها بين التشدد الواضح والعبث المستتر ومعلن نفاقها اذ تعلن نقيض ما تسر .

عبد المجيد النفزي

(*) الاستاذ توفيق بكار : دراسة حول رواية « الوشم » لعبد الرحمان مجيد الربيعي .

إلى أين تمضي ؟

شعر : عبد الله مالك القاسمي

« يا ابن بلدي .. إليك اكتب » (*)

لِماذَا البُكَـاءْ ؟
لِمـاذَا البُكَـاءْ ؟

* * *

سَـأَلْتُ المَدِينةَ عَنْ رَجُـلٍ
تَضَوّعَ مِنْهُ الأَرِيـجْ
عَنْ رَجُلٍ كانَ يَعْشَقُهَـا
وَيُقَاسِمُهَـا صُبْحَهَـا
وازدحـامَ الخُطَـى ،
والضّجِيـجْ

* * *

بَكَتْ ثُمّ قَـالَتْ :
– «خَفِيّا كَرَعْشَةِ ظِـلّ ،

(I) مقدمة كتبها المرحوم البشير خريف لاحدى قصصه . وقد علق عليها بقوله :
« إنها كما ترون قصيرة .. أقصر مقدمة لكتاب فى ما أعلم ، كما أن لمواطننا العظيم ابن خلدون أطول مقدمة .. »

مَضَى سَيّدُ العِشْقِ في جُبّةِ الصّمتِ
مُصْطَخِبًا
مضى سيّدُ العشقِ مُشْتَعِلاً في الليالي
ومزدهرًا في البَهَاءِ
كواحةِ نَخْلٍ.»

* * *

فَقُلْتُ :
– إلى أيْنَ تَمْضِي ؟
فهَذِي المسافاتُ تَنْأَى ..
وهذا المَدَى غائمٌ كالصّباحاتِ
يَا سَيّدِي :
إذَا كنتَ تَنْوِي الرّحِيلاَ
لمَاذَا تُغَازِلُ رِيحَ الجَنُوبِ
وَشطّ الجَرِيدِ ؟
لِمَاذا تُوَاعِدُ هَذَا النّخِيلاَ ؟

عبد الله مالك القاسمي

«برق الليل»
بين الواقع التاريخي وألف ليلة وليلة

بقلم: فوزي عبد القادر الميلادي

يعتقد الكثيرون ان كتابة القصة التاريخية أيسر على الاديب وأهون شأنا من كتابة قصة انسانية أو عاطفية أو اجتماعية .. الخ .. ذلك ان الاديب لا يبذل جهدا فى البحث عن المادة الخام وانما يجدها متوافرة بين يديه ممثلة فى الاحداث التى تزخر بها كتب التاريخ ينتقى منها ما يحلو له ويفرغها فى قالب الفن فيخرج منها بما يشاء من قصص غير اننى ارى ان كتابة القصص التاريخية هى أصعب الوان الكتابة الادبية فالكاتب فى هذا المجال لا تتوافر له الحرية الكافية فى بناء عمله الفنى فهو ملزم أولا بألا يتجاهل الاحداث التاريخية الرئيسية والا يخرج عنها ، وملزم بعد ذلك بأن يرسم شخصيات قصته ويحركها فى نطاق ذلك الاطار التاريخى المحدود . من أجل ذلك تحتاج القصة التاريخية الى كاتب راسخ القدم على درجة عالية من الامتياز والكفاءة بحيث يحسن اولا اختيار المواقف واللقطات التاريخية التى تجيش بالحركة وتفيض بالحياة ثم يحسن بعد ذلك اختيار الشخصيات التى لا تتعارض مع الواقع التاريخى على ان يكون من بينها شخصية فذة غير عادية تصلح لدور البطولة بما تنفرد به من صفات الشجاعة والاقدام والاحسان الى الغير ومقاومة الظلم .. الخ ..

وتتجلى مقدرة الكاتب فى هذا المجال فى الربط بين الاحداث التاريخية والعلاقات الانسانية التى تزخر بها القصة بحيث تغدو الاحداث التاريخية ضرورة فنية لاكتمال مقومات البناء القصصى وتغدو العلاقات الانسانية وكأنها جزء لا يتجزأ من أحداث التاريخ الكبرى . وعندما اطلعت على رواية «برق الليل» للاديب التونسى الاستاذ البشير خريف وطالعت على غلافها هذه الكلمات .

« هذه قصة شعبية تاريخية بطلها برق الليل الذى عاش احداثا تاريخية خطيرة فى القرن العاشر الهجرى فقد شاهد قدوم خير الدين بربروس

والاحتلال الاسبانى لتونس والمقاومة الشعبية لهذا الاحتلال، ووجدت الدكتور الطاهر الخميرى يقدمها الى القراء ويصفها بأنها (يمكن أن نسميها قصه غرامية تاريخية) وقر فى ذهنى على الفور اننى امام منافس للاستاذ محمد فريد ابو حديد الذى قدم الى المكتبة العربية روايات : « زنوبيا وعنتره والملك الضليل .. » الخ . غير أننى عندما أخذت أطالع القصة وانتقل بين فصولها المختلفة حتى وصلت الى نهاية الصحائف دون ملالة او استكراه خطر لى هذا السؤال ، ألا تصلح هذه الروايه ان تكون جزءا مكملا لالف ليلة وليلة التى ظهرت فى المشرق العربى منذ عديد من السنين او بمعنى آخر الا يمكن اعتبارها الجزء الاول من كتاب يطلق عليه ألف ليلة وليلة الجديدة يضم ما يماثلها من أقاصيص فى المغرب العربى ؟

ولا يظننى أحد القراء أننى أمزح أو أنتقص من قدر القصة بهذا الكلام وانما هو سؤال ألح وما يزال يلح على بعد ان قرأت القصة مرة ومرات وعشت مع أحداثها وشخصياتها وأرجو أن أعود الى هذه النقطة بشيء من التفصيل بعد عرض القصة ٠

والآن ٠٠ من هو خير الدين بربروس وما الاحداث التاريخية الخطيرة التى وقعت فى تونس فى القرن العاشر الهجرى ؟

هذه أمور نرى من الاوفق ان نجلوها فى ايجاز على ضوء الواقع التاريخى قبل ان نجلو أحداث القصة ذاتها ٠

خير الدين بربروس أو بربروس الثانى ولد بجزيرة متلين عام 1483 م (888 هـ) وبدأ حياته قرصانا تحت ادارة أخيه عروج بربروس الاول وقد تمكن الاثنان فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى من بسط نفوذ الخليفة العثمانى على الجزائر وتونس مما ازعج بنى زيان فى تلمسان وبنى حفص فى تونس وبادر عبد الله الحفصى وأحمد بن القاضى الصنهاجى الذى كان خير الدين قد ولاه أمر قبائل جبال زواره وصنهاجه وسهول متيجة ، بادر الاثنان الى الاتفاق على الغدر بخير الدين والقضاء على سلطانه ٠

فى ذلك الوقت كان خير الدين بربروس مشغولا بحرب أمير البحر أندريا دوريا الجنوى الذى كان يكثر من التحركات فى بحر الارخبيل وقد أخذ خير الدين يراقب تحركاته وينزل بأسطوله الهزائم المتتالية الى ان ارغمه على قصر نشاطه البحرى على حراسة السواحل الاسبانية ومن ثم خلا له البحر الابيض فأسرع الى غزو جزر المورة فى جنوب اليونان ولما انس

وجود نزاع بين السلطان الحفصي ابى محمد الحسن وذوى قرباه من الامراء وجد الفرصة سانحة لاستعادة النفوذ التركى فاستولى على ميناء بنزرت وزحف على تونس فدخلها من باب الحلق فى 18 من أغسطس عام 1534 م (941 هـ) بعد معركة لم تدم الا فترة قصيرة وفى اليوم نفسه أعلن خير الدين بربروس سقوط دولة بنى حفص ولم يسع أبو محمد الحسن الا الفرار الى القيروان ثم الالتجاء الى ملك اسبانيا بعد ان خذله أهل تونس وفتحوا أبواب المدينة لخير الدين وجنوده ٠

وقد ساد الذعر الولايات الايطالية من جراء احتلال الاسطول التركى لموانى المغرب الادنى فبادر ملك اسبانيا الى نصرة ابى محمد الحسن واصدر البابا فى روما اوامره الى الدول الاوربية بمؤازرة ملك اسبانيا فى العمل على مناهضة الاحتلال التركى للثغور المغربية فتجمع لديه أسطول ضخم قوامه 400 سفينة حربية تحمل أكثر من ثلاثين الف مقاتل واتجهت هذه العمارة البحرية الى تونس فضربت حولها الحصار فى يوليو عام 1535 م (942 هـ) وبعد بضعة أيام نزلت جيوش الغزو الى البر فلقيهم خير الدين بجنوده فى قرية الكلخ على مقربة من المدينة ٠

وكانت سجون قلعة تونس تضم نحو خمسة وعشرين الفا من اسرى الفرنجة فانتهزوا فرصة القتال بين الجيشين وحطموا قيودهم وخرجوا من السجن وحملوا على جنود خير الدين من الخلف فاختل تماسك جيشه وحلت بوحداته هزيمة كبرى انسحب على اثرها الى ميناء عنابة (بونه) ثم عاد بفلوله الى ميناء الجزائر وبالغ الاسبان فى الانتقام من أهل تونس عقب الاستيلاء عليها فاستباحوا حرمة ديارهم ثلاثة أيام وفتكوا بستين ألفا منهم وأعادوا أبا محمد الحسن الى الحكم تحت حمايتهم وفرضوا عليه ضرائب منوعة يؤديها اليهم كل عام واشترطوا عليه اباحة السكنى للافرنج فى تونس وقامة الكنائس والاديره فى ارجائها وامتلاك العقارات والاراضى ٠

ورحل الجيش الاسبانى الى بلاده فاستطاع أبو محمد الحسن تدبير اموره بعض الوقت ثم ثارت العامة عليه واستدعوا ابنه ابا العباس احمد ليقوم بالامر فيهم وقد كان وليا لابيه على عنابة (بونه) فأسرع بالقدوم الى تونس وفر ابوه الى القيروان فقبض عليه ابو الهول شيخ العرب وسمل عينيه وأشخصه أعمى الى القيروان فاعتقل فيها الى أن مات وانفرد أبو العباس أحمد بالحكم ٠

أما خير الدين بربروس فقد عمد الى الانتقام من الاسبان بالاغارة على موانى اسبانيا ذاتها وظل يوالى هذه الغارات حتى استدعاه الى القسطنطينية السلطان I سليمان الثانى (المعروف بسليمان القانونى) .

ومات خير الدين فى 4 من يوليو عام 1546 م - 954 هـ بالغا من العمر 63 عاما ودفن بالمسجد الذى ابتناه فى بيوك دره .
هذا هو موجز الواقع التاريخى :

.... ومن جفاف هذا الواقع ننتقل الى طلاوة السرد القصصى للنظر الى أى مدى استطاع المؤلف ان يمزج التاريخ بالفن .

فى الفصل الاول نرى «برق الليل» فتى فى السابعة عشرة من عمره قسطلى السواد يتفانى فى خدمة سيده (حامد بن النخلى) العالم الذى وهب حياته للبحث عن حجر الفلاسفة واكسير الحياة وعندما يأتى المساء - كل مساء يريح الشيخ عظامه الواهنة ويسلم عينيه للنوم ، ويسلم قواريره وعقاقيره لبرق الليل الذى يسهر الليل ينتظر غليان العقاقير وقيام زاوية النجوم ...

ويطول الليل ويأخذ الفتى الضجر فيتناول قوارير سيده المختلفة الامتلاء ويختبر ما يصدر عنها من أصداء ويرتبها على الرف ترتيبا منسجما ويدق عليها بمطرقين رقيقين من النحاس دقا مطربا ثم يبدو له تدعيم الجمل الموسيقية بدق آخر فيعمد الى قراب من الجلد يجعلها بمثابة « طبلة » ينيط بقلنسوته جرسا لطيفا فيكبر النغم :

وفى كل ليلة تتكرر نفس الصورة يبدأ بنقر خافت ثم يسرع شيئا فشيئا وتأخذه النشوة فيرقص على الايقاع ويدق بيديه ورجليه وراسه ويصل يسطح حتى تظهر الرغوة على شفتيه .

وفى احدى الليالى بينما هو غارق فى موسيقاه انسكب الزئبق على الارض واحترقت رجلاه فسمع ضحكة ناعمة فنظر فى الكوة فشاهد وجه امراة باهرة الجمال ورآها تنسحب ضاحكة فى الظلام وصعد الى سطح المنزل يجيل بصره فى الظلمة فلم ير شيئا .

ومرت ليال لم يشاهد فيها هذا الوجه ثم عاود الظهور فجأة فأخذ يتأمل صورته فى المرآة واكتفى بذلك القدر من التطلع ... وذات ليلة التقت

عيونهما فلم يطق صبرا ورفع رأسه يريد ان ينظر الى السماء مباشرة فانسحب الوجه الجميل فأخذ يبكى ويلطم خديه .

ويترك المؤلف برق الليل تائها فى حيرته لكنه لا يترك القارىء كذلك فيعرفه بان صاحبة الوجه الجميل عروس شابة توجه زجها للحج وقام ببناء جدار يسد باب المنزل فترة غيابه ويبين من الحوار الذى يدور بين الزوجة والزوج ليلة رحيله أن الخيرات قد انقطعت عن البلد منذ انقطع عنها الباشا خير الدين ولما تسأل الزوجة عن سر ذلك يقول الزوج : (أمور بين السلاطين . يظهر ان الحفصى ما عادش متفق معه) .

وفى احدى الليالى والوحدة تعتصرها تركت حجرتها مفتوحة للنسيم فسمعت موسيقى الزنجى فانتظرت حتى نامت وصيفتها وتسلقت شجرة النارنج ثم جازفت بخطاها تتبع الصوت من سطح الى سطح حتى رأت شعاعا من نور واطلت فرأت برق الليل يشطح بين قواريره فلبثت فترة تشاهد وتستمع ثم عادت ادراجها وكررت ذلك عدة مرات حتى عاد الحجيج وعاد زوجها فامتلأت الدار بالافراح ثلاثة أيام .

وفى احدى الليالى وقد استغرق زوجها فى النوم وسكن الليل سمعت الحسناء موسيقى الزنجى فانسلت وطلعت السطح وذهبت وعند رجوعها وجدت زوجها قد خرج فى طلبها وبعد حوار قصير صفعها وطلقها ثلاثا ..

ومثل ذلك وقع لبرق الليل فقد شغله وجه الحسناء عن ملاحظة تفاعل العقاقير فانفجرت نحاسة ملأى بها وأهلكت جانبا من القوارير الثمينة والمساحيق النادرة فاستيقظ سيده ليجده مازال يرقص ويدق الاجراس والطبول فأخذ الشيخ يلطم خديه .. فقد كان على ما يعتقد على قاب قوسين أو ادنى من اكتشاف اكسير الحياة فانهال على الزنجى ضربا حتى لاذ بالفرار .

وصل برق الليل الى فندق بالتبانين وجلس بحذاء الابل وفى الصباح سمع القوم يتحدثون (مولاى الحسن الحفصى بات ما اصبح .. البلاد بدون سلطان الترك يقبلون الباشا خير الدين يدخل البلاد) وجد الناس يهرعون الى التفرج فتبعهم الى كدية الفبران (البلفيدار) فرأى سيلا من جنود الينشرية نخبة الجنود العثمانية وسرعان ما تم التآلف بين الاهالى والجنود الذين انتشروا فى سانية العناب يستريحون تحت الاشجار وتنشأ صداقة بين برق الليل واحد الجنود كان يميزه عن زملائه انه اسمر اللون لا يشبه رفاقه

الشقر ويمازح الفتى الجنود فيتقبلون مزاحه وينتـزع عمامة مـن عـلى رأس ضابط متزمت ثقيل الظل فيضربه هذا بالسوط حتى كاد يقضى عليه لولا ان تدخل الجندى الاسمر ويتشاتم الاثنـان الجنـدى والضابـط ويكـادان يقتتلان ويعلن الفتى امام الصنجق دار انه عبد الجندى الاسمر شعشـوع ويتفرق الجمع ويسير الزنجي وراء منقذه يحمل جولقه حتى وصلا نواحى سيدى شعبان فيقول له شعشوع (سر سر يا أخي فى حفظ الله ما انت عبدى ولا أنا سيدك) .

أما شعشوع هذا فله سر عجيب فهو ليس بالتركى وانما تونسى مهنته التجديف كان قد اختطف امراة نشزت عن زوجها الشيخ وبدا له انها مظلومـة وتحت ظلام الليل ادركه رجال الامن فافسدوا عليه خطته وبعثـوه يجـدف بمراكب السلطان ولم يلبث ان التقى بفتيان التركى من الغزاة فاحبت نفسه المغامرة وانضم الى رجال خير الدين ولم ير فى ذلك حرجا فحيثما يـرفـع المؤذن عقيرته فثم وطنه على حد تعبير المؤلف وبهذه الصفة عاد الى تونس .

ويمر شعشوع بدار الحسناء فتلحظه وتقول له : (غدوة فى المعرض) وهو مكان يقول عنه المؤلف : إنه يقع الآن فى سوق الشواشية الكبيـر .. ويعجب شعشوع من ذلك الموعد لعلمه أن المعرض هو سوق العبيد والجوارى قـرب جامع الزيتونة .

ويلتمس الجولق الملىء بالحلى والجواهر مما غنم الترك من سواحل الروم

ويقبل شعشوع على الطعام وبرق الليل يرقبه من بعيد ثم يقبل عليه ثم يشاركه مأكله .

وينتشر جنود الباشا التركى فى البلاد ويحار الناس فى شـأنهم هـل يقاومون أو يرضون بما وقع ؟.. وانقسم الاهالى الى فريقين وانتهز بـابـا سعفان الفرصة فاغرى بشعشوع عدد من اتباعه وغلمانه فاخرجوه من الفندق وبابا سعفان هذا يحرضهم على القضاء عليه بعد ان استوثق من الجـولـق ويتدخل برق الليل لانقاذه من أيديهم .. وتحت وطأة الحاجة يعرض برق الليل على شعشوع ان يبيعه ويقبض ثمنه . ولا عليه فهو سيهرب حتما ويعود اليه مرة ثانية .

وفى منزل الدلال يدور حوار لطيف بين شعشوع والـدلال تمتـزج فيـه السياسة بالاساطير بالتاريخ ثم حوار بين الدلال وجواريه يـروين خـلالـه

ملاقين من قصص وأحوال وطرائف وفى الصباح يبيع الدلال برق الليل الى امراة عجوز فى حاجة الى خادم يسهر على صحة ابنها المريض وتلمح كوكبة من الينشرية شعشوعا فتناديه فيخرج اليهم على حين صوت جارية زنجية فى بيت الدلال يلاحقه (شعشوع اش نعمل باش نلقاك) ولم تكن هذه جارية ولا زنجية ٠٠ وانما الحسناء التى اطلت عليه وضربت له موعدا فى المعرض وقد صبغت جلدها ودفعت نفسها الى الدلال حتى تحتال على لقاء شعشوع فيشتريها ليتم لهما اللقاء بعد ان مات عنها زوجها .

وبينما برق الليل يعمل جادا فى خدمة العجوز وابنها يقف الشيخ مغوش فقيه البلاد فى المسجد ليحرض الناس على مقاومة الاتراك والولاء للركاب العالى مولاى الحسن الحفصى أعزه الله ٠٠ ويستمع له ويؤمن به خلق كثيرون ويخرج الاهالى ويعملون السيوف فى الاتراك ٠ ويصل النبأ الى الباشا خير الدين فلا ييئس ولا يجزع وانما يأتى الى القصبة ثم يخرج الى المتقاتلين بنفسه ويقول المؤلف : (وكان من هيبته فى الثمانين من عمره ومن نشاطه وقوته فى الاربعين) ٠

ويغرى الشيخ مغوش الاهالى باستمرار القتال وتنطلق النبال ويسأل الباشا عن ضباطه فلا يجد امامه الا الضابط الاقرع فيقول له :

ـ اخرج يا على الى هؤلاء وردهم عن القصبة وجئنى بذلك الشيخ المهذار .
ـ اضرب بالبارود ؟
ـ لا ٠
ـ سوف يقتلوننا عن آخرنا ٠٠ اكشام باشا شريف لدى ٠
ـ اطلق طلقات فى الهواء ٠

وينصرف الضابط ويتمتم الباشا ٠٠ وددت لو كان غيره ـ ان فى هذا العلج لغلظة وفظاظة ويعرض ـ شعشوع خدماته فهم قومه وهو ادرى بهم ويأذن له الباشا فى اللحاق بالضابط على الفرطاس واحتدمت المعركة بين الفريقين ولجأ الاهالى الى الزيت الساخن فألقوا به على الجنود الاتراك ففرق شملهم ورد على ذلك على الفرطاس بالبارود ٠٠

ومن أحد المساجد كان برق الليل يرقب المعركة وأبصر بشعشوع يقول لعلى الفرطاس : اجننت يا هذا القاتل اخوانك المسلمين بالبارود ؟ هل لديهم ما لديك ؟ ألم تسمع الى كلام الباشا ؟ ويسحب الفرطاس المكحلة من

من يد شعشوع ويضربه بها على رأسه ولكن ضربته طاشت وجمع شعشوع قبضة يده وضرب بها رأس الفرطاس فطرب لذلك برق الليل ولكن حركاته استرعت اليه نظر بعض الجنود الاتراك فصوب اليه احدهم مكحلته واطلق النار فسقط برق الليل يتدحرج على الارض وهو يتساءل أميت هو أم حي ؟ ثم استبان انه لم يصبه الا بعض الرضوض وعاد الى سيدته ٠

أما شعشوع فقد هبط بين الاهالي صائحا : (أنا اخوكم ما تخافوش من مكاحلهم ٠٠٠ الماء ٠٠٠ الماء راهي المكاحل تبلت بطل عملها) واخذ الاهالي بنصيحته فذهل الاتراك وحمل الاهالي عليهم بالسيوف ولكن الاتراك فطنوا للحيلة بعد قليل وحاولوا استعمال ما لم يبتل من المكاحل ولكن السماء اصابتهم بسيل فولوا مدبرين ورجعوا الى الباشا يحملون خيانة شعشوع ٠

وفي غمرة الابتهاج بالنصر يلتقي شعشوع ببابا سعفان ويحاول هذا ان يسترضيه ويعطيه الجولق ولكن جوب شعشوع ان دق رأسه ولكنه لم يمت .

وتحول شعشوع الى الاهالي ينصحهم بمسألة الاتراك الذين لم يريدوا بالبلد شرا ويحاربون الكفار الفجار فرضي عن كلامه بعض الاهالي واستنكره البعض الآخر فانسل من بينهم وانطلق عدوا الى القصبة كي ينظر مع الباشا كيف يكون العمل ولكن قصة خيانته كما رواها على الفرطاس كانت قد سبقته الى هناك وما ان وصل حتى القي القبض عليه اربعة من الجنود واودعوه السجن ٠

وفي منزل العجوز طلى برق الليل وجهه بالكبريت ونظر اليه الفتى المريض وأمه فوجدا وجهه يتلألأ بنورانية غريبة : خطوط متموجة في الجبين وحلقات مستديرة في الخدين وأقواس مصلوبة في الذقن تعرض عليه ان يتوسط بين زوجين وقعا في الطلاق وندما ويفهم ان المطلوب منه ان يقوم بدور المحلل فيقبل وتقوده الى دار بالعرافين وجد بها شيخا محترما وعدلين جالسين فوق الدكانة وتمت اجراءات الزواج ووعده الشيخ بصرة كبيرة من النقود يأخذها بعد أداء المهمة .

ويختم المؤلف الفصل الاول بهذه الكلمات ٠

(دخل على عروس ليلة وارجع فيها بصره كرتين فاذا به يرى صاحبة الوجه الجميل تلك التي كان يعبدها في المرآة وهي تطل عليه من كوة المخبر ٠٠)٠

ويبدأ الفصل الثاني بحوار عجيب بين الشيخ زوج الحسناء وبرق الليل غداة زواجه من الحسناء ٠٠

الشيخ يطلب منه ان ينطق بكلمة الطلاق ويأخذ الصرة وينصرف لحاله سبيله والفتى وقد قضى الليل فى صحبة زوجته يتساءل فى سذاجة وخبث «مسكينة ما عملت شىء علاش الطلاق» وبحركة سريعة يفلت من الشيخ ورجاله الذين اعتزموا التنكيل به ويطلق ساقية للريح ولم يقف الا عند جبل سيدى بالحسن الشاذلى امام البحيرة وهناك يجتر ذكريات طفولته فى غابات افريقية وكيف انتزعه تجار الرقيق من أمه وفرقوا بينهما.

وفى خلوته اخذ يتسائل هل الشابة الحسناء له ام عليه ؟ .. انها لو كانت له فهو على استعداد لان ينظم كل شىء ويأخذها معه الى الربع الخالى .. وقوى به العزم ورجع ادراجه نحو المدينة .. ولكنه لم يدخلها مباشرة وجال بين المدافن ـ فرأى لصوصا يقتسمون اسلابا فانقض عليهم فتركوا الاسلاب فزعين من غضب الموتى وفى الغد اشترى بعض العقاقير وركب لحية فغدا شيخا اسمر يمشى فى ازقة تونس الهوينى .

فى ذلك الوقت كان خير الدين فى حيرة من امره فارسل يطلب على الفرطاس يستفسر منه عن حقيقة ما دار بين جنوده والاهالى وامعن فى توبيخه لما ان علم انه امر باستعمال المكاحل ويطلب احضار شعشوع فيمثل بين يديه على الفور وهو يصيح بأنهم يريدون قتله قبل ان يتكلم ويفصح ، ومنه يعرف الباشا كل شىء ويقول له : واذا دعوتك لنتم ما بدأت ، غدا نمضى الى هؤلاء الاكارم نزور سيدى محرز بن خلف) .

وفى الغداة يتوجه خير الدين ونفر من رجاله لزيارة سيدى محرز وبعيدا عنه يقف جيشه يرقب الموقف ويقرأ الباشا الفاتحة ثم يرمى بأكياس النقود الى الفقراء والعجزة المقيمين حول المسجد فتزغرد العجائز ويقول الرجال يلثمون طرف ردائه ، وتجمهر كثير وانقلبت الريبة والوحشية الى فرح وبهجة واستقبال شعبى عظيم وشعشوع يتقدم الموكب ويخترق الجموع يرد السلام باعلى صوته .

وتقدم وجوه القوم يرجون من الباشا ان يشرفهم فى المسجد وقد فعل فيهم التواضع والحسنى ما لم يفعل البارود فدخل المسجد وصلى ركعتين واخذ الناس يعتذرون اليه وسأل عن الشيخ مغوش ثم رمى بسبحته الى اقرب الناس اليه قائلا (خذها الى الشيخ ليقبل علينا مكرما) ويعم البشر وكان اكثر الناس فرحا شيخ اسمر ذو لحية يومىء لشعشوع بيديه وراسه وعصاه

ويضحك ملء فمه ذى الاسنان الناصعة .. ولكن انى لشعشوع ان يعرف فيه غلامه برق الليل ٠

فتحت جميع الابواب واختلط الاهالى بالجنود وامر خير الدين بتوزيع العطايا وعين شعشوع قائدا للقصبة وجعلت القلعة محتشدا للاسرى وفى قصر شعشوع قائد القصبة يلتقى الرفيقان ٠٠ شعشوع وبرق الليل وينعمان بجلسة لطيفة وعشاء فاخر من قصر الباشا ٠

ويخرج الفتى لشراء بعض الحاجيات من السوق وهناك يلتقى بوصيفة الحسناء التى كان شعشوع قد اختطفها فيعرف الوصيفة وهى له منكرة ولكنها ما لبثت ان تعرفت عليه برغم ما كان يغوص فيه من ملابس وتخبره ان سيدتها تبحث عن شعشوع ٠

ويذهب برق الليل فى صحبة الوصيفة الى سيدتها فتجن فرحا لرؤيته وتعطيه منديلا مبللا بالدموع مطيبا بالمسك لكى يوصله الى شعشوع ٠٠ ويتلقى المنديل راضيا ٠٠ ولكن ساخرا من النساء جميعا فهو لا يثق فيهن ولا يأبه لعواطفهن فيعجب الزنجى من ذلك وهو المتيم بالحسناء التى كانت تطل عليه من الكوة والتى ما زالت حتى الآن زوجته الشرعية .

وفى الغد امتلأت رحاب القصبة بالاسرى من الفرنجة فاستقبلهم شعشوع وبرق الليل لكن هذا الاخير ما لبث ان ترك صديقه قائلا له : انه غير مستعد لتحمل المسؤوليات ونزل الى الشارع ليذوب فى خضم الحياة ويتزوج شعشوع محبوبته ولكنه ما يلبث ان يعجب بصديقة نصرانيه لها تتردد عليها فأرسل الى مولاها ـ يشتريها وأصبحتا زوجين تدب بينهما الغيرة ويقتسمان عطفه ومودته ٠

ويلتمس برق الليل رزقه فى كل الدروب وكل المهن ٠٠ فيعمل خادما ومساعدا وبناء ويخدم فى الافراح وفى احدى الافراح يجمع مع باقى الخدم يعزفون الموسيقى ويضربون الطبول ويجتمع حولهم خلق كثير وهناك يلمحه سيده القديم حامد النخيلى فيطارده ويهرب منه بعد ان يقذف بثور هائج بعيدا عن طريقه ويعجب الناس لرجل يمسك بقرنى الثور الهائج ولا يبالى ويهرب من شيخ عجوز ويتعرض فى الوقت نفسه لمطاردة الزوج الحائر الذى يريد ان يرغمه على الطلاق ويكاد يفتك به هو وغلمانه ولكنه يفر من بين أيديهم ويقع فى غدير وهو مصاب فى امعائه فلا يلتفتون اليه وتتوق نفسه

الى صاحبة الوجه المليح فيعمد الى دميتين احداهما بيضاء والاخرى سوداء ويبعث بهما الى البيوت ضمن ما يعرضه من ادوات اللعب والزينة وذات يوم تعود اليه الدميتان معطرتين فيعرف انهما وقعتا فى يد زوجته .. ويبعث اليها من يسألها هل يفرق بين الدميتين او يبقى عليها مرتبطتين ؟ وبعد قليل يوجه الى الزوجة حيث تقيم فى منزل أهلها ويسألها هل يبقى او يذهب ؟ فتدعوه الى البقاء لكن سرعان ما تطلب منه الذهاب وهو حائر لا يدرى لذلك التحول المفاجىء سببا حتى يفاجأ بزوجها الاول ينقض عليه ولكنه ما يلبث ان يفلت منه ليصطدم بالشيخ حامد النخيلى الذى يصيح : عبدى تم تتلقفه العجوز والدة الفتى المريض لتصيح بدورها .. وصيفى .. وصيفى ..

وخرج قائد القصبة شعشوع على هذا الهرج والمرج فعرف فى الزنجى رفيقه برق الليل فزجر النظارة وساق المتخاصمين الى القلعة وهناك انتصب لهم قاضيا ويدور حوار بين شعشوع وغرماء برق الليل الثلاثة الشيخ والزوج والمرأة يفهم منه ان المرأة فقدت ولدها فى الاسر وهو يحارب الفرنجة ويصدر شعشوع حكما نهائيا باتا : على الزوج ان يدفع الصلة لاحد الطالبين وَيشتريه من الآخر وعلى العبد ان يصبح ملكا للزوج ويطلق المرأة .. ويدفع للحرمة حالا اسيرا من كورسيكا تستبدله بابنها .. ويستحسن القوم هذا الحكم الذى يقطر حكمة وقبل الانصراف يطالب الزوج أمهاله حتى يبيع الزيت فيجاب لذلك ثم ينحنى على شعشوع ويستفتيه فى السكنى مع زوجته فيأذن له على شريطة ان تحتجب عنه . وفى الفصل الثالث نشاهد برق الليل يسير مع الزوج متجهين الى دار البنات ، ويتخذ برق الليل من المعصرة مقرا له وفى الغد يطوف بالاسواق والفنادق يعرض بضاعة سيده ويعود فى المساء الى الغناء والموسيقى وقد انزاح عن كاهله الخوف بعد ان امن المطاردة ومخاطرها .

ويبيع الزوج الزيت ويرسل برق الليل لينبه على السيد حامد النخلى والسيدة العجوز بالحضور يتخالص الجميع وتطيب نفس برق الليل .. لكن فجأة يحدث امر ذو بال يصرف الناس عن كل ما عداه .. لقد استنجد الحسن الحفصى بالنصارى ليسترجع ملك اجداده من خير الدين .. ويصل فارس ينهب الارض نهبا ويتوجه الى جامع الزيتونة حيث يتلو الباشا خير الدين اوراده بعد صلاة العصر ويشيع الخبر : حملة تسد عين الشمس ظهرت اشرعتها فى البحر .

ويخرج الباشا الى الناس ويخاطبهم فى تؤدة واطمئنان (سأخرج اليهم وعندها ترون غلائظهم فى البحر شذر مذر) ثم اعلن التعبئة بين جنوده ..

أما شعشوع فتفضى له زوجته الاولى بسر خطير ·· ان الزوجة الثانية تسقيه البنج فى القهوة وتتصل ببعض الاسرى ·· كذبها ثم هددها ·· ثم استرضاها ثم شك فى امره ·· فهو يعلم ان زوجته الجديدة تخلص له الحب لكنه يعلم انها نصرانية ايضا وتكره ضرتها واستقر رأيه على ان يتظاهر بشرب القهوة ويريقها فى منديله ثم يرى ·· ونفذ الخطة وكادت تمزق شعرها عندما عرفت انه شرب القهوة فعلا هذه المرة لكنها تماسكت وقبلته وانصرفت وتبعها دون ان تشعر الى حجرة المطبخ حيث شاهدها تكشف عن فوهة فى ارضه وتلوح فيها بقنديل فيخرج اليها عبد الله غومير احد اسرى الفرنج الذى تظاهر بالاسلام والاخلاص لخدمة الجيش التركى ·· وكان غومير هذا قد عهدت اليه اسبانيا بامر جليل هو ان يجمع كلمة الاسرى من الفرنجة ليكونوا على اهبة لانتفاضة داخلية يساندون بها الحملة الخارجية وقد رسم خطته على اساس النفاذ الى قلب زوجة شعشوع الثانية مذكرا اياها بالنصرانية واعدا اياها بالزواج ·· ويسمع شعشوع حوارهما ويفهم منه انه ما دس له اخيرا هو السم وان زوجته نادمة على ذلك فيصرفها غومير مذكرا اياها بما ينتظرها من مجد وتلتقط اذن شعشوع كلمات يفهم منها ان العدة اعدت للخلاص من خير الدين باهدائه سطلة مسمومة ارسلت اليه مع احد الصنائع من الموريسيك هذه السطلة يموت من يضعها على رأسه بعد ساعتين اثنتين ·

ولم يطق شعشوع صبرا فقفز الى اول جواد صادفه وانطلق يجرى الى الباشا اما برق الليل فقد شاهد زوجة شعشوع الاولى حائرة خائفة فأوصلها الى دار أهلها وسلم حراسة الاسرى الى غومير الخائن وهو لا يدرى عن خيانته شيئا فلما وجد الاسرى قد حطموا الابواب وانتشروا فى البلاد ·

وصلت طلائع السفن الاسبانية الى حلق الوادى ليلا ونزل منها الجنود وزحفوا على الحضرة فاصطدموا فى خربة الكلخ الجنود الترك الذين ردوهم على اعقابهم فما طلع الفجر الا وكان الباشا قد استرد الثغر كله وافنى كل من نزل من الاسبان ··

ويصل شعشوع الى خير الدين ويصرخ فيه ان ينزع السطلة لانها مسمومة وينزعها ويلحق احد الضباط بالخائن الذى اهداها وهو يحاول الفرار ·

ويسأل الباشا لمن تركت القصبة فيجيبه : حياتك افضل من كل شىء ··

وتاتى الانباء بتحطيم أبواب القصبة ونهب خزائن السلاح وانطلاق الاسرى فى البلاد يقتلون ويخربون وقدر خير الدين خطورة الموقف فانسحب فى حركة لولبية بارعة وعهد الى شعشوع بمنصب كبير فى الجيش واقسم انه على موعد مع النصرانية ويعقب المؤلف على ذلك بقوله (وبر الباشا بقسمه فانه بعد ثلاث سنين اوقع النصارى فبعث باسطولهم كله الى قاع البحر فى خليج بريفزا) .

ويغرى شعشوع برق الليل بالرحيل معه فى خدمة الباشا يركبان البحر ويعيشان فى جو المغامرات ولكن برق الليل يعتذر بأنه على موعد مع الزوج بعد يومين ليتم الجميع العقود الثلاثة فكيف يمكنه التخلف .

دخل الاسبان القصبة وامر قائدهم «شارلكان» باقامة كنيسة هناك شكرا للبتول) .

وفى اعقاب الغزاة دخل السلطان الحسن الحفصى فتبوأ عرش أجداده واختلط الغزاة بالفرنجة الذين كانوا فى الاسر واستباحوا الحاضرة ثلاثة ايام وهجموا على الاسواق وهى مفتوحة فاخذوا الامتعة وقتلوا وسبوا خلقا كثيرا وأتوا من الفضائع فنونا فبقروا البطون واحرقوا المنازل باهلها ومزقوا الاشلاء واعتدوا على الارزاق والارواح والاعراض .

ويلتقى برق الليل وهو يتميز غيظا بالزوج يستنجزه وعده فيعده ان يتم له ما اراد وزيادة اذا ارتحل الاسبان فيضرب له برق الليل وكأنه يقرأ الغيب موعدا يوم الخميس التالى .. وكان يوافق الثامن من اغسطس 1535 .

ويقول المؤلف (ولما كان يوم الخميس الذى عينه برق الليل لم يبق فى الحضرة من الكافرين ديار) .. وأيقن الزوج بكرامة هذا الزنجى وازداد تقديرا له .

واجتمع شمل النخلى بالزوج والمرأة العجوز وتمت العقود الثلاثة ونطق برق الليل بالطلاق .

ويقيم الزوج الولائم ويدعو برق الليل للدخول للمنزل لقضاء بعض اللوازم وهناك يلتقى بصاحبة الوجه الجميل ويعرف منها ان اسمها ريم ويعاود دخول المنزل لاحضار الشراب ويلتقى بها ثانية ويدور بينهما حوار قصير يتذكران

فيه ما مر بهما من احداث ويبكى بين يديها ، وقالت له ، (وين ما تحب ترانى ترانى) .

وفى منزل الزوج يعود برق الليل الى موسيقاه وشطحه وتطرب ريم لسماعها وتذكرها بما سلف من ايام .

وفى فجر اليوم التالى دخل برق الليل ليأخذ متاعه من المنزل فوجد الجميع نياما الا «ريم» ويدور بينهما حديث هامس تحاول خلاله اثناءه عما اعتزمه من رحيل ليلحق بشعشوع ولكنه يبتسم ويرفع يديه ويقول القوارير ، وتدفع اليه بصرة نقوده فيجد ما بها قد تضاعف فتقول له والعبرات تخنقها (شوية عوين للطريق) ويأخذ (عصا التسيار) ، ويثبت فيها الصرة ويضعها على كتفه ويمضى مع نسيم الفجر .

ويختم المؤلف قصته هكذا (قبل ذلك بيومين يرى الرائى زنجيا يأتى ربوة سيدى احمد السقا ويصب فيها مسحوق الزرنيخ الازرق الذى يجعل المثقال من المطر من الماء ناقعا زعافا فأصبح ماء آبار القصبة السبع مسموما .

قال المؤرخ ومن الفدامات من عسكر شارلكان كل من ورد وذهب لحمهم بالجذام فترك سلطان الروم ما بدأ من كنيسة صارت فيما بعد المدرسة الصادقية وأصبحوا لا ترى الا أماكنهم) .

والقصة كما نرى قد التزمت الواقع التاريخى الى حد كبير فالمؤلف لم يخرج عن الاحداث التاريخية الكبرى ولم تقف تلك الاحداث عقبة فى سبيل بناء القصة وانما على العكس طوع تلك الاحداث فلم تبد كأنها دخيلة على القصة وانما بدت جزءا متمما لها أما اضافة المؤلف الى التاريخ فلا يعدو الجزئيات وهو امر سائغ لكاتب القصة التاريخية ولا تثريب عليه فى ذلك طالما لا يتعارض مع السجين الاسبانى مثل ذلك تآمر زوجة شعشوع عليه والحقيقة ان المؤلف قد احسن اختيار القعقة التاريخية التى جعل منها مسرحا لاحداث قصته فهى فترة من تاريخ المغرب تنبض بالحياة وبالاحداث المثيرة كما انه احسن اختيار شخصياته سواء من بين شخصيات المجتمع او شخصيات التاريخ .

فهذا برق الليل يمرق فى ظلام الليل ووضح النهار كالاسطورة يحب ويكره يضحك ويبكى يعمل ويتبطل وفى النهاية يرحل بعد ان يسمم الابار أمام

الغزاة الغاصبين وهذا شعشوع تونسي الاصل تركي الولاء في أعماقه صراع بين ولائه لقومه وولائه للراية التي يعمل تحتها .. ثم لا يجد حرجا في التوفيق بينهما بعقد الصلح بين الفريقين فذلك أجدى في نظره ونظر الكثيرين من قومه من الخضوع للوالي الحفصي الذي يدين بالولاء للفرنجه.

وهذا الباشا التركي واسع الحيلة شديد الذكاء يتظاهر بالاعتزاز بالرابطة الدينية التي تربط المسلمين في جميع انحاء الارض ومع ذلك يحدق به الخطر من كل جانب فلا يملك الا الانسحاب واعدا ولا تمر سنوات ثلاث حتى يبر بوعده وينزل بالفرنجه وبأسطولهم ضربة قاضية .

وهذا يسوقنا الى هذا السؤال : من هو بطل هذه الرواية هل هو برق الليل او شعشوع او الباشا التركي ؟

ان دور البطولة يقتضي ان ينفرد احد شخصيات الرواية بالجزء الاكبر من اهتمام المؤلف والقارىء على السواء وبرق الليل هنا وان كان المؤلف قد القى الضوء على جوانب عدة من شخصيته وتصرفاته الا انه كثيرا ما كان يحتجب خلف الاحداث الكبرى بل ولم يضطلع في القصة كلها بدور ايجابي له قيمته سوى تسميم الابار وقت رحيله .

فبرق الليل يسرق اللصوص في المدافن ولا يرعى حرمة الموتى وشعشوع يخطف امرأة من زوجها ولما تبعث اليه بمنديلها مبللا بالدموع يسخر منها ومن عواطف النساء جميعا وما ان يتزوجها حتى يعجب بصديقتها النصرانية ويتزوجها ايضا ويجعلها موطن سره مما عجل بوقوع الكارثة .

وهذا الباشا التركي وان كان ينصر العرب على الفرنجه ، ويحارب الخونة والدخلاء الا انه نشأ قرصانا يعتمد على النهب والسلب وظل كذلك فترة طويلة من الزمان .

والذي يبدو ان امتزاج العنصر الاجتماعي بالواقع التاريخي وتشابك احداث القصة وتعدد الوان الصراع من ثم ما بين عاطفي وسياسي واجتماعي كل ذلك وان كان قد افاد البناء الفني للقصة الا انه حرم القصة في النهاية من ظهور شخصية تنفرد بالبطولة وتكتمل لها مقوماتها .

ونعود الى شخصية برق الليل بشيء من التأمل والدراسة .. هذه الشخصية ليست غريبة علينا ولا أريد ان اقول ان شخصية برق الليل هنا مستوحاة من شخصية عنتره العبسي الفارس الاسمر ، كما رسمتها القصص والاساطير

العربية فعنتره كان يقوم بدور قيادى فى تلك القصص والاساطير وقد اكتملت له مقومات شخصية البطل التى يفتقدها برق الليل .

ولست ازعم ان شخصيتى برق الليل وشعشوع قد استوحاهما المؤلف من شخصيتى لينى وجورج رفيقى السفر والكفاح فى مسرحية شتاينبك «رجال وفئران» ذلك أن برق الليل وان تشابه مع زميله لينى فى القوة الجسمانية وارتباطه بصديق أوفر حظا من المعرفة وأكثر خبرة بالحياة الا ان برق الليل كان يبدو دائما على عكس لينى مستقل الشخصية حاضر البديهة سريع الحركة ولكن الذى اكاد اجزم به ان المؤلف قد استوحى شخصية برق الليل من شخصية العبد الاسود فى مقدمة الف ليلة وليلة وهو العبد الذى تسبب فى أن يقتل شهريار زوجته وكل زوجة تليها حتى وقع فى حبائل شهرزاد مع فارق بسيط هو ان مؤلف برق الليل لم يقع فيما وقع فيه مؤلف الف ليلة وليلة من تورط العبد فى علاقة آثمة تودى فى النهاية بحياته وحياة المرأة التى اسلمت اليه قلبها وهى الملكة فى الف ليلة وليلة وريم فى رواية برق الليل وجعل اديبنا التونسى لقاء العبد بالمرأة فى اطار علاقة الزوجية التى اريد لها ان تكون وقتية وطارئة ، ومرجع ذلك هنا وهناك ضرورة البناء القصصى فألف ليلة وليلة تقوم اساسا على ضبط العبد متلبسا بجريمته وما تلا ذلك من انتقام بشع وكان ذلك التمهيد الطبيعى لظهور شهر زاد على مسرح الحوادث لكى تروى على مسامع شهريار القصص والاعاجيب ، أما فى رواية برق الليل فقد اقتضت الضرورة الفنية ان يظل الزنجى الاسود حيا حتى آخر صفحة من صفحات الرواية حتى يشاهد الاحداث الجسام ويشارك فيها بالقدر الذى اتيح له ثم يودع فى النهاية محبوبته آسفا وهو فى طريقه الى المجهول وليس هذا هو الخيط الوحيد الذى يشد هذه القصة الى ألف ليلة وليلة وانما ايضا الجو العام للقصة ورسم الشخصيات .. فان من يطالع القصة يشعر للوهلة الاولى انه يعيش فى جو مشبع بسحر الف ليلة وليلة وخيالاتها واوهامها ويشعر ان هذه الشخصيات التى يراها تسير فى شوارع تونس سبق ان التقى بها او بمثيلاتها فى شوارع بغداد ودمشق وبلاد واق الواق فهذا شيخ وقور يخلط العقاقير ويرصد النجوم ويعد العدة لاكتشاف اكسير الحياة وهذا عبد زنجى يرقص نشوان على صوت الموسيقى صاخبة وامرأة حسناء يغيب عنها زوجها فتقفز من سطح الى سطح يجذبها صوت الموسيقى وتطل على الزنجى وتختفى كالاسطورة وبجانب ذلك الدلال وجواريه والعجائز والصبية والسيد والغلمان والدسائس والمكائد والمؤامرات .

اذا كان السيد المؤلف لم يقرأ الف ليلة وليلة فأنا أهنئه على خياله الواسع العريض واذا كان قد قرأها فأنا أهنئه ايضا على حسن الاستفادة من تراثنا العربى القديم وهو امر لا ينقص كثيرا من قدر القصة ولا يصح ان يوجه اليه بسببه لوم او ٠٠ عتاب ٠

واذا كان هناك ثمة مجال للعتاب فهو ان المؤلف ترك فرصة ذهبيـة تضيع من بين يديه ولم يهتبلها هى فرصة ابراز بطل وطنى من بين صفوف الشعب التونسى يقود مقاومته ويذكى شعوره القومى ضد الغزاة والدخلاء والخونة على السواء ٠

ولعل المؤلف قد استشعر اهمية وجود مثل هذا اللون من الوطنية فأشار فى الكلمة المنشورة على غلاف روايته الى ان برق الليل قد شاهد المقاومـة الشعبية للاحتلال الاسبانى ومع ذلك فالقصة تكاد تكون خالية من كل لون من الوان تلك المقاومة الشعبية اذا ما استثنينا تسميم الابار فى السطور الاخيرة ٠

ولا يفوتنى ان انوه بان هذه القصة قد نالت جائزة بلـدية تـونس ولا اخالها قد نالت تلك الجائزة التى لها اهميتها فى القطر التونسى الا عـن جدارة واستحقاق ٠

وأخيرا فاذا كان الدكتور طاهر الخميرى قد تمنى فى ختام مقدمته ان يرى هذه القصة فى صورة فيلم يعرض على الشاشة البيضاء قـريبا فاننـى اتمنى ان اراها قبل ذلك فى طبعة جديدة فى المشرق العربى وقد استبدل المؤلف بحواره الدارج حوارا عربيا سليما فنحن أحوج مـا نكـون اليـوم الى امتزاج الثقافات العربية المتعددة المنابع والمصادر والف تحية لادباء المغرب ٠

فوزى عبد القادر الميلادى

انتهـى الملـف الخـاص بفقيـد القصـة
التونسيـــة المرحـوم البشيـر خريـف

رَجُلُ الموْت

شعر: الحبيب الهمامي

أنَـا رَجُلُ المَـوْتِ
مُنْكَسِرُ الرّوحِ أرْحَلُ بينَ ضلوعِـي
لأبحثَ عنْ خطَوَاتِ اللواتِي
أخَذْنَ دَمِي في حقَائِبهـنّ
وأرْسلْنَ وَجْهِي إلى الإنطِفَـاءَ
فلَمْ يبْكِ غيْرِي علَـيَّ
ومَا أكْثَرَ المَـوْتَ فِيَ

* * *

أنَـا رَجُلُ المَـوْتِ
مُرْتَبِكَ النفس
ارحَلُ بيْنَ ضُلُـوعِي
أدَخِّنُ نَفْسِي كثيرًا
فلَمْ أرَ مَا يصلحُ العُمْـرَ
لمْ أرَ غيْرَ انتِحَارِي يؤْدِي إليَّ

* * *

أنَـا رَجُلُ المَـوْتِ
ما عدتُ أدْرِي

لِمَــاذَا المدينَةُ تلقُي عَلَيَّ صَعاليكها !؟
كلّما جئتُ صِفْرَ الضُــلُوعِ
لأمْسَحَ دَمْعَةَ أمِّـــي
لِمَـــاذَا البَنَفْسَجُ نَاوَلَنِي زَهْرَةَ النَّـــارِ ؟
حِينَ اسْتَوَتْ زَهْـرَةُ الماءِ بَيْنَ عـرُوقِـــي
فَهَلْ نَسِـيَ الـوَطَنُ اسْمِـــي ؟
لِمَـاذَا الأحِبَّـــةُ مَاتُوا ومَا قَتَلُونِي ؟
لأبلغَ آخر حُلْمِي !

* * *

انا رَجُلُ المَــوْتِ
مُتّ كثيــرًا .. كثيــرًا .!
فَلَمْ أجِدْ الـوَقْتَ
كيْ أنْقُشَ امـرأةً
وَأذُوقَ الأنُوثَةَ زُغْرُودَةً .. وسَعِيــرًا .!
وَلَمْ أجِـدِ الـوَقْتَ
حَتَّى لأحْلِقَ حُـزْنِـي
وَأشْـرَبَ فِنْجَـانَ حُبٍّ
عَلَى صَدْرِ أمِّـــي
واقْطِفَ حَرِيّةً .. وَمَصِيــرًا .!

* * *

أنَا رَجُــلُ المَــوْتِ
ما عُدتُ ادرِي إلى أيْنَ أمْضِي ؟

حَيَـاتِي عَلَى مِقْصَلَهْ
وَمَوْتِي على سُنْبُلَهْ
لأيّ اتجـاهٍ أوَجِّهُ سِرْبَ الخُطَى ؟
آهِ تلكَ هِيَ المُشْـكِلَهْ !

★ ★ ★

أنـا رَجُـلُ المَـوْتِ لَمْ أعْرِف المَـوْتَ
مـازلتُ أجلسُ بيْنَ ضُلُـوعِـي
ادخِّنُ نفْسِـي
واصرخُ : يـا لَيْتَنِي ميِّتـاً كنْتُ !
دَاخِـلَ عُـرْسِـي

الحبيب الهمـامى

ننشـر فى الأعـداد القادمـة

الطرز المعمارية فى البلاد العربية
والتخطيط المستقبلى لها فى اطار الثقافة العربية

بقلـم : **ابراهيم شبوح**

الالتزام الوطني في فكر الأستاذ محمد مزالي

بقلم : محمد كمون

تختلف النظرة الى مفهوم الالتزام ، فهناك من الادباء والنقاد من يعتبرون الانتاج الادبي او الفكري الذي لا يلتزم بمنهج معين أو بقوالب فنية محددة السمات هو انتاج لا يمكن اعتباره قد ادى رسالته ـ ان اعتبروا ان للادب رسالة ـ وهذه المواقف تجعل العمل الفني مجردا من صفة الحرية والتلقائية والعفوية التي هي من أهم خصائص الانتاج الفكري الذي يعكس بوضوح وجلاء عبقرية المنتج ومدى قدرته على الخلق والابداع .

الا ان الالتزام اذا جاء دون تأثيرات خارجية ودون ضغط أو اكراه كان ذا أهمية قصوى لانه يبرز اهتمامات المفكر ومواقفه اتجاه القضايا التي استقطبت انتباهه وشغلت فكره وجعلته يعلن عن مواقفه منها بالصورة الفنية التي يراها أكثر ملاءمة لتبليغ افكاره .

والالتزام بهذه الصورة لم يفقد أهم مقوم من مقومات الابداع الفني وهو حرية المفكر في انتاجه لان فرض الالتزام على الغير يميت الكفاءات ويحدد القدرات ويقضي على المبادرات التي قد تغير مناهج متوارثة ، وقوالب متبعة ، في حين ان الالتزام التلقائي قد يزيد الانتاج ثراء ، والرصيد الادبي نماء ، والرؤية وضوحا ، والمنهج اتساعا .

ان تاريخ الفكر الانساني مليء بالمبادرات الجريئة التي لم تجد في البداية أذنا صاغية بل وجدت صدودا عند ظهورها وصل الى درجات من العنف بقيت راسخة في أذهان من اطلعوا عليها لهولها ووحشيتها ، ولكن ايمان أصحاب هذه المبادرات ، بما أنتجوا وبما انتهجوا جعلها في ما بعد مصدرا للعبقرية ومرجعا للاصالة والعمق .

أما فكرة مدى اقبال الناس على الانتاج الادبى اذا اتسم بميسم الالتزام أو عدم اقبالهم فأمر لا يدور بخلد المفكر المؤمن برسالته لان الاديب لا يستجدى عواطف القراء ولا يتقرب اليهم وانما ينتج ما أمكنه الانتاج ، وكلما كان الانتاج ذا مستوى قيم محتوى وأسلوبا ، وكلما كان يتماشى واهتمامات القراء من حيث المواضيع والقضايا المثارة كان الاقبال عليه أكبر والاهتمام به أشد ، وبذلك فان الانتاج يفرض نفسه ما دام الغير يجد فيه رفعة فنية أو دسامة فكرية ، والبقاء دوما للاصلح .

ومقومات الصلاح كامنة فى جوهر الانتاج لانها عوامل داخلية لا يمكن فرضها أو اقحامها وانما يشعر بها المستهلك بدلك الاثر ، وكلما كان المطلع على الانتاج أكثر اختصاصا وأدق حساسية وأشد اهتماما الى درجة الوصول الى مستوى النقد كان الاستخلاص أطرف والحكم أقرب الى المنطق ٠٠٠٠٠

وفى مجال الالتزام ببلورة مقومات الوطنية ، وتوضيح معطياتها ، وسبر أغوار كنهها ، وتركيز مفهومها على أسس سليمة ، وجعل النفوس تنهل من معينها الفياض لتقوى على القيام بما يفرضه عليها الواجب نحو الوطن ونحو المجموعة القومية التى ينتمى اليها واتجاه الانسانية قاطبة نجد العديد من المفكرين قد آلوا على أنفسهم غرس مفاهيم الديمقراطيه والحريه والمساواة وما إليها من المبادىء السامية فى الاجيال المتعاقبة . ومن هؤلاء المفكرين الاستاذ محمد مزالى الذى بدأ قصته مع الفكر متأثرا بالاحداث القومية الهامة مرتفعا بها الى مستوى التجريد والاطلاق والاستخلاص حتى تكون الاستخلاصات انسانية عامة يمكن ان يستفيد منها الانسان الحر الابى دون ارتباط بالحدود المكانية والزمانية لانها متسمة بسمة الاطلاق ومتجذرة فى النفوس ومتأصلة فى الارواح ٠

فالحرية مطلب انسانى عام ناضلت من اجله الشعوب وقدمت فى سبيله الضحايا البشرية وضحت من اجله بالنفس والنفيس وخلدت رواده ومريديه وتوجت أبطاله ومحبيه ونبذت أعداءه ومناوئيه وسحقت المتآمرين عليه مهما طالت فترة الظلم وعظمت صولته واستمرت جولته ٠

وفى تحديد مفاهيم الحرية ومصادرها واشعاعها ومفعولها فى نفوس الافراد وضمير الامة ينطلق مزالى من واقع الحياة من فرحة التونسيين وهم يعلنون للعالم فرحتهم باستقلالهم وارتقائهم الى مصاف الدول الحرة المتحكمة

فى مصيرها • «عم السرور واستبشر الشعب وتوالت الافـراح وتـرددت الحان الموسيقى وتجاوبت الاغانى والاناشيد : حققت تونس استقلالها» •

والتعبير عن هذه الفرحة انطلاقا من التصوير الحقيقى لفرحة الشعب مكن المفكر من القاء الاضواء على مفهوم الاستقلال المتضمن فى طياته معنى الحرية . فهو ليس الفرحة والابتهاج فحسب وليس التعبير عن تلـك الفرحة بكل اشكال ومظاهر الزينة وانما هو أمر أعمق من ذلك • هو عند المفكـر « رشد ومسؤولية ، مسؤولية كل مواطن ولكن مسؤولية القـادة والمرشديـن أثقل» •

والحرية تحمل فى طياتها الديمقراطية التى هى عند المفكرين الذين لـم يساهموا فى تحقيق الحريـة ولـم يشاركوا فى مسيرتهـا النضاليـة أمـور خيالية تفضى الى جعل الحبل على الغارب ممـا قد ينجر عنه عواقـب لا تحمد عقباها . ولكنها عند المنطلقين من تجربة نضالية تقتضى حرية الاختيار وحرية الكلمة البناءة وحرية التصرف الواعى المسؤول من أجل الصالح العام . وهى مع ذلك عند الاستاذ محمد مزالى العديد من الامور الدقيقة التى منها «انتهـاج الامة التونسية نهجا انشائيا فيما تأتيه من الاقوال والافعال» ••••• و«معناه أن الشعب صاحب السلطة المطلقة ومصدر السيادة الكاملة وان كل نظام ـ ايا كان ـ انما يستمد منه قوته ويعبر عن ذلك العقد الاجتماعى المقدس الذى يجب أن يربط بين أفراد الامة الاحرار المتساوين بحيث يعـرف كـل مواطن حقوقه فيمارسها وواجباته فيضطلع بها » .

ان الانطلاق من الواقع الى مستوى التحليل والتجريد وابداء الرأى وتحديد المفاهيم يضفى على التفكير حيوية ومصداقية وتجاوبا مـع الغير فيكون الفكر بذلك مؤثرا متأثرا لانه مشحون بعناصر الواقع الفعلى وليس هو وليد أفكار فوقية قد يكون لها مع الاحداث الواقعة تشابه او تناسب •

وربط الفكر بمجرى الواقع الوطنى او الانسانى ليس فيه تحديد لحريته وانطلاقه لان الانطلاق لا يعنى التقيد والاسر والدوران فى حدود معينة وانما هو شحنة قادرة على جعل الفكر قادرا على التحليق فى كل الميادين دون ضياع ودون تيهان فى عوالم من الخيال لا تفيد الناس فى شىء •

وكلما كانت النظرة الى الواقع متسمة بالديناميكية كانت الافكار أكثر تحررا وتطورا مع الالتزام بأهم المبادىء التى يؤمن بها المفكر حيث يقع اقرار صور جديدة

لها ، مع التشبث دوما بجوهرها . وفى هذا الصدد يقـول الاستاذ محمد مزالى «ان الواقع لا نزال ننظر اليه على أنه «حدث تاريخى» ، هو أبدا فى تطور ودوما فى حركة والانسان هو الذى يجب أن يسوده وأن يعمل بعقله ووجدانه وجوارحه على توجيهه الى حيث المثل العليا والعظمة» ٠

والالتزام الوطنى بتحديد مظاهر الواقع المعاش للمساهمة بالرأى والفعل والقرار لا يعنى الارتباط بالامور المادية والاحداث الظرفية ، وانما هو أعمق من ذلك وأشمل ٠ فهو تحديد للمسار العام للديمقراطية والحرية والمساواة وهو استخلاص معانى القوة والعظمة من تاريخ أمتنا العربية الاسـلامية ٠ وهو مساهمة شعبنا فى التقدم الانسانى فى كل المجالات ، وهو تحدى اعداء شعبنا وامتنا مع التشبث بأصالتنا والاعتزاز بعروبتنا واسـلامنا ٠ وهـو الظهور بمظهر الشعب المتحمل لمسؤولية الشعوب الحرة المناوئـة لاعـداء الانسانية مهما كانت صولتها وجولتها ٠ وهو السعى الى تخليص الانسان من حيوانيته ووحشيته وأنانيته وخوفه وعقده النفسيـة والارتفـاع به الى المستوى الانسانى تضامنا وابداعا واقداما ٠

وفى هذه الميادين يعظم دور المثقفين ليكون لهم دورهم القيادى فى السير بشعوبهم الى الامام حتى لا يبقوا فى ابراجهم العاجيـة ممعنيـن فى جـدل يتراوح بين العقم والسلبية وفى ذلك يقول الاستاذ مزالى «وعـلى المثقفيـن كذلك أن يتجاوزوا الاعتبارات الشكلية والجدل العقيم فينطلقوا من واقعهم وحياة شعبهم لتقييم أمورهم وتحديد رسالتهم ومنزلتهم فى مجتمعهم٠٠٠»

وللالتزام بالمساهمة فى تحرير الواقع وتطويره مبادىء عـديـدة يجـب تركيزها على أسس ثابتة مع ما يتطلب ذلك من طـول نفـس وتضحيـات جسيمة ووضوح رؤية وكفاءات عالية واستقلالية فى أخذ القرار وثبات عند الازمات ورسم لملامح المستقبل فى أجواء عالمية تتشابك فيها المصالح وتتباين فيها المناهج وتكثر فيها التحديات ٠ ومن هذه الركائز الثابتة فى المنهـج الاصلاحى التونسى تثقيف الشعب وتعليمه وتربيته : «التربية هى التكيف البشرى منذ نعومة اظفارهم وهى التى تهديهم الى الخير والحق والجمال وهى التى تنشئهم على التحابب والتسامح والتآزر وتجعل منهم اخوانا » .

ولا يكتفى الاستاذ محمد مزالى بتعريف التربية وانما يقدم دوما النتائـج الباهرة التى تجنيها الشعوب من انتهاجها مناهج تربوية سليمة «٠٠٠ تصون الضمائر من التلوث وتزكى النفوس من الادران» ٠

وللمزيد من تحديد دور التربية فى الرفع من شأن الشعوب والتقدم بها فى مجالات التحضر والتمدن يؤكد مزالى على تطوير برامج التعليم تماشيا مع سنة التطور وضمانا للفاعلية والجدوى : «اننا نريد ان تساهم البرامج التعليمية ... فى تاصيل الشباب وتنشئته على المحبة والاعتزاز بالانتساب اليه والاستعداد للمساهمة فى اعلاء شأنه وتطوير ثقافته وانماء تراثه والزيادة فى اشعاعه لما فيه خير الانسانية وتقدم الحضارة» .

وليس من السهل تأصيل الشباب فى بيئته وجعله معتزا بأصالته لان عوامل التغريب متعددة منها عقدة الشعور بالنقص التى غرسها الاستعمار ردحا من الزمن فى نفوس ابناء الشعوب المولى عليها . وهذه العقدة النفسية جعلتهم يفقدون ثقتهم فى قدراتهم الذاتية فتنكروا لماضيهم وحاضرهم وجروا وراء تقليد ما يقع فى عوالم لا تمت الينا بصلة . فكان الزحف الثقافى الحضارى الاجنبى الذى يحمل فى طياته الغربة الوطنية حيث تشعر أن المجتمع بدأ يفقد مقوماته الذاتية التى كانت تميزه . كما ان هناك عاملا ثانيا ساعد على ذلك الشعور والتبعية الحضارية وهو مبدأ تقليد الضعيف للقوى والمتخلف للمتقدم فى اجواء عملت القوى الكبرى على اذكائه فى النفوس ضمانا لمصالحها واستمرارا لصولتها .

وامام هذا الوضع كان عمل المثقفين الرواد فى الدول الناهضة بعد كبوتها عملا استوجب التحدى ورفع راية الثورية اعتمادا على خطة ترمى الى اعادة الثقة للنفوس حتى تشعر بالاعتزاز وهى تنتمى الى أمة لها حضارتها ولها قدراتها على مواجهة الصعاب للحاق بركب الحضارة .

وحين نمعن النظر فى الرصيد الفكرى الهائل للاستاذ محمد مزالى نجده قد ركز منهاجه الاصلاحى على استمداد مقومات القوة من التراث العربى الاسلامى دون ان يكون سلفيا متعصبا .

وعلى بعث الحمية فى النفوس كلما حقق الشعب انتصارا علميا أو أدبيا ليكون له طاقة جديدة دافعة الى الامام . وعلى تنمية مقومات الثقافة العربية الاسلامية وفى مقدمتها الرفع من منزلة اللغة العربية لجعلها لغة العلم والتكنولوجيا الحديثة مع فتح الحوار الدائم مع الحضارات الانسانية الاخرى على قدم المساواة .

فعملية احياء التراث عملية هامة تساعد على بعث الوعى الوطنى من جديد حتى نساهم فى تأصيل الشباب فى وطنه وحتى يكون قوة اشعاع وعنصر

قوة قومية قادرة على الابداع والدفاع وفرض الوجود قوميا وانسانيا ٠ «تأصيل الشباب فى بيئته وتنشئته على محبة الوطن والاعتزاز بالانتساب اليه .. وانماء تراثه والزيادة فى اشعاعه لما فيه خير الانسانيه وتقدم الحضارة» ٠

فالدعوة الى التونسة بهذا المفهوم ليست دعوة اقليمية ضيقة وانما هى حفز للهمم حتى تنهل من معين التراث وتشحن بكهارب جديدة لتكون قادرة على التعايش مع المعطيات الحضارية الجديدة ٠٠٠ وهى الرفع من مستوى حضارتنا لتثبت وجودها وتساهم فى المسار الحضارى الجديد ولذلك يقول الاستاذ محمد مزالى «انما التونسة مطلب من مطالب الاخلاص للذات والوفاء للروح وهو سعى لا تكاد تشذ عنه امة تحترم نفسها ٠ والتونسة احياء واستحياء للماضى ورهان على المستقبل ٠٠٠»

واحياء التراث وحده لا يكفى فلا بد من التفاعل الايجابى مع الواقع واستمداد عناصر القوة منه فى كل المجالات ٠ وهنا تكثر الركائز والثوابت٠ فالسياسية منها تكون بين بيان عناصر القوة والمجد فى المسيرة التحريرية للشعب التونسى ، وابراز الانتصارات السياسية منذ الاستقلال داخليا وخارجيا ضمن المجموعة الدولية : «الانتصارات السياسية مظهر لحقيقة عميقة الجذور .. تعرب عما فى الاعماق من اختمار واندفاعات عارمة وقوة جبارة والحياة انى وجدت اندفاع ونمو ونظام» ٠ ذلك ما أكده الاستاذ محمد مزالى الذى اعتمد فى منهجه الاصلاحى الوطنى على التفاعل الكلى مع عناصر القوة فى المجتمع . فهو مؤمن بقدرات الجيل الحاضر الذى لم يقطع صلته بماضيه وأمجاده حيث ان الوضع الحالى يساعد اكثر مما مضى على الخلق والابداع فالتشجيعات متوفرة والدولة تسير حسب مخططات ترمى الى تنمية القدرات وتوفير المفقود منها سابقا «٠٠٠ لنفعل كما فعل اجدادنا واكثر ونجتهد كما اجتهدوا وابعد» ٠

وهذا هو التواصل الحق : تأثر دون انبهار ٠ وخلق دون تنكر ٠ وتحديد لملامح المستقبل حتى تجد الاجيال القادمة أرضية للعمل البناء تحاشيا للقطيعة بين الاجيال تلك القطيعة التى كانت سببا من اسباب التخلف والتقهقر ٠ وضمن هذا التفاعل مع الواقع لا بد من الوقوف عند كل محطة حضارية جديدة او دفق ثقافى حديث حتى تكون منارات اشعاع يستنير بها الجيل الزاحف الى الامام ٠ ومن بين هذه العلامات المميزة نشر التربية وتعميمها

وتركيز المكتبات وفتح دور الشباب وبعث بيت الحكمة وتشجيع الاكتشافات والاختراعات الوطنية • وتكريم النوابغ من الادباء والمفكرين والعلماء وتحديد معالم سياسة ثقافية وطنية وتحقيقها على كل المستويات وفي كل الربوع مع ابراز التيارات القومية التي تساهم في الثراء الثقافي العالمي مع الحفاظ على أصالتنا وطابعنا المميز لتتفاعل هذه المعطيات حتى نتمكن من خلق عقلية جديدة قادرة على الاختراع والاكتشاف مع التدرج الى أعلى المستويات المشرفة وفي هذا الميدان يقول الاستاذ محمد مزالي «••• نتعلم أولا كيف نستقل ثقافيا وكيف نعتمد على أنفسنا ونثق بقدراتنا الذاتية •••• ونضع الملامح الكبرى لحضارتنا ثم نستنبط الطرق والمناهج التربوية الكفيلة بتجسيم هذه القيم العليا في ناشئتنا •••»

أما تنمية عناصر الثقافة العربية الاسلامية ضمن خطة بعث الوعي الوطني في النفوس لمجابهة حاجيات التطور والتحضر فان الاستاذ محمد مزالي يدافع من أجل التعريب وخاصة في الميادين العلمية ومن هنا اصبح رمزا لفكرة تحقيق مبدأ التعريب عن طريق المرحلية المدروسة المضبوطة •

فالامة التي لا تعتز بلغتها لا تستطيع ان تنهض من كبوتها • والخلاص من بوتقة الاستعمار لا يكون الا بتحوير اللسان القومي من التبعية الاجنبية•

وهذه الخطة تتطلب عزما وحزما وتحديدا للمسالك المتبعة وفي هذا السياق يقول الاستاذ محمد مزالي «أما التعريب الذي هو مقوم من مقومات التونسة كالدين الاسلامي الحنيف فهو ضرورة حتمية ما دامت لغة البلاد التونسية هي العربية •••••»•

وهكذا نستخلص من كل ما سبق ان المفكر محمد مزالي استطاع ضمن منهجه الوطني ان يحدد بكل وضوح صفات الانسان التونسي .

فالانسان التونسي هو المعتز بماضيه المجيد • المشارك في تحرير وطنه من الهيمنة الاستعمارية • المحتفل بذكرى انتصاراته على القوى الاستعمارية الغاشمة • المستخلص من مقومات تراثه مبادىء جديدة قادرة على الدفع الى الامام • المؤمن بقدراته الحالية على مجابهة كل التحديات • الموفر لعناصر القوة والمناعة والوحدة القومية • المتفتح على التيارات الحضارية العالمية • المتعاون مع الاشقاء والاصدقاء من أجل تحقيق رفاهية الانسان • الرافع

لشأن أمته العربية الاسلامية · المحافظ على مقومات ثقافته وحضارته · النابذ لفكرة الاستسلام · المعادى لقوى الهيمنة والظلم · المعلن عن رأيه بكل جرأة· المؤمن بقدرة تونس على المساهمة فى كل تقدم انسانى ضمن المجموعة القومية التى تنتمى اليها ·

اما معالم المجتمع التونسى ضمن هذه الخطة الفكرية الملتزمة التزاما تلقائيا باذكاء روح الوطنية فى النفوس فهى معالم المجتمع الناهض من كبوتة الحضارية الرافع لمناراته الثقافية التى اوقدتها الاجيال المتعاقبة ويترقب من ابنائه المزيد من المضاء والشجاعة والالتزام حتى يزيدوا الشعلة اتقادا والنور سطوعا

هى معالم المجتمع المستقطب لابنائه الذين يشعرون بتجذرهم فى أرضهم وتأصلهم فى تاريخهم وتفتحهم على الغير دون ذوبان شخصيتهم ·

هى معالم المجتمع القادر على ان يكون محط رحال الاشقاء والاصدقاء للمساهمة مع ابنائه فى الدفع الحضارى للانسان الحر الابى ·

ان السمات الاساسية لفكر الاستاذ محمد مزالى هى سمات واضحة ثابتة الجوهر متطورة المناهج · فالحرية والديمقراطية والمساواة والاصالة والتفتح والتونسة والقدرة على الخلق والابداع والدفاع عن حقوق الانسان، والايمان بحوار الاجيال والاخلاص فى العمل والتفانى فى خدمة الغير والنضال من أجل حرية الشعوب والثبات على المبادىء والذود عن المستضعفين ···· من المواضيع التى تجد من اهتمامات الاستاذ محمد مزالى الشىء الكثير ·

ان الالتزام التلقائى بخدمة قضايا المجتمع التونسى حتى يكون احد روافد المد الحضارى العربى الاسلامى التقدمى اضفى على فكر الاستاذ محمد مزالى روعة وطرافة وثورية متزنة تستمد من الجذور اصالة وتفيض من التفتح تقدما وتبرز من المجهودات الصادقة مستقبلا زاهرا يجد فيه الانسان الحر الواعى مجالا لخلقه وابداعه واداء رسالته ·

محمد كمون

وتري الدامي يرنُّ

شعر : رجب بن مهني

لماذا تموتُ الزّنابقُ
تبقى الحقُولْ ؟!
ويُقفر وجهُك يا أرضنَا
والجمالُ يزولْ
لماذا أُعدّ لك الآن حرثا ؟
تجرّ المحاريث كلّ الخيولْ
وأنتظر الزّرع ينمو .. يطولْ
وأنتظر الغيثَ في السنوات العجافْ
ويبقى السؤال : إذن ما الحلولْ ؟
لماذا أخطّ على ورق ما أقول ؟
(أيحفظ هذا الزمان قصيدي ؟)
أرى النّهرَ يمضي الى البحر
يمتزجُ الملح بالعذبِ
والأرضُ عطشى
أرى أنّ حمّى التّسلّطِ تصبحُ عرشًا
وأن المهادنَ .. يصبحُ وحشًا
وأنّ البراءةَ تركبُ نعْشًا
(أرى أوجهَ الغرباء تطل علينا)

* * *

أنكرتني كلماتٌ قلتُها
سوطُ جلادي على ظهري يرنُّ
وبأذني صبّ ألفاظًا وفي صدري بطشًا
(لم أعد أحملُ ألفاظيَ رفشا)
موغلٌ في الحزن حدّ الاكتئابْ
وتري الدامي يرنُّ
وأنا أرقصُ في لجّ الضّبابْ
وسؤالي : كيف أنجو ؟
كيف قد ألقى الجواب ؟
(في جرابي كنت أخفيت الجواب)

* * *

قبّلَ العاشقُ صدرَ الريحِ
هل تأتيه يوما بالمطرْ ؟!
تدفعُ السُّحْبَ إليه
فيُزيلُ الخصبَ ساعات الضّجَرْ
قبّل الريحَ ومازال باحضان
رياحِ الخصبِ قلبا ينتظرْ
(مرّت السّاعات حُبْلى بالأماني
يازمانَ الحبّ هل يعنو قضاءٌ وقدرْ)؟

العــودة إلى « عنابيــا »

قصة : جواد صيداوي

عندما استقل أحمد شمراني سيارة الاجرة من بلدة « طبرنا » ، وكان على يقين بأنه ذاهب الى قريته « عنابيا » بعد غيبة طالت تسع سنوات كاملة قضاها فى البرازيل . ولكن شوقه الجامح لقريته وأهله بدأ يتـلاشى لتحـل محلـه دهشة عمياء ، فقد سارت به السيارة فوق طريق تمتد كالحلـم المنعش بيـن حقول مشرقة الاخضرار ، ومنازل جميلة بيضاء مزروعة هنا وهناك بتوزيع هندسى متقن ، وعندما بلغت به الدهشة حدا يبعث على الشك ، قال للسائـق بنبرة يابسة :

ـ قلت : قرية عنابيا !

ـ نحن فى الطريق اليها ، فاطمئن يا سيدى ..

عن أى نوع من الاطمئنان يتحدث هذا السائق ؟ والى أية جنة ، سماوية أو أرضية يمكن أن توصل هذه الطريق الساحرة بأناقتها وروعة مناظرها ؟ إنه يعرف طريق قريته جيدا ، يعرفها شبرا شبرا ، ويذكر كيف كـان السائقون يهربون بسياراتهم من حفرها العميقة مفضلين السير فى أطـراف الحقـول المجاورة حرصا على العجلات وتجنبا للارتجاجات العنيفـة المـؤذية ، ويذكـر نوافير الغبار المنبعثة من عجلات السيارات فى أيام الصحو . ويذكـر وحول الشتاء وحوادث الانزلاق المميتة . فكيف له أن يطمئن ؟ لا شك أن فى الامر خطأ ما . زهور من كل لون وكل نوع تكسو حافتى الطريق دون انقطـاع ، ومواقف على بضعة كلمترات تشبه منتزهات الملوك فى العصـور الغابـرة ، وأناس أنيقو المظهر ، سيعدو الحركات ، مطمئنو النظرات . وسيارات فارهـة

تخطر بدل ذهابا وإيابا ، حتى الهواء الذى يتسرب من نوافذ السيارة ويداعب وجهه يبدو ذا نكهة مختلفة تماما . فأين هو بالضبط ؟ وقبل أن يرتفع صوته فوجىء بصوت السائق يقول له :

ـ أرجو ألا تشتد زحمة السيارات بعد قليل .

ـ زحمة سيارات على طريق عنابيا ؟

ـ نعم يا سيدى ، فمنذ أن أصبح « أوتوستراد السلام » مكتمل الدورة حول البحر الابيض المتوسط بالاضافة الى تفرعاته فى شتى الاتجاهات ونحو مختلف البلدان أصبحت شهور الصحو لا تطاق من الازدحام فوق جميع طرقاتنا ، لذلك تفكر السلطة المحلية بربط عنابيا وجوارها بمدينة طبرنا ، بواسطة طريق خاصة إما معلقة وإما نفقية ، لان هذه الطريق تضيق بالسيارات الهاربة من زحمة الاوتوستراد وأظن أن العمل قد بدأ فى تخطيط الطريق الخاصة ، ولا يحتاج تنفيذها الى أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر ..

الثرثرة صفة قديمة تلازم الحلاقين وسائقى سيارات الاجرة والنساء ، ولكن الثرثرة غالبا ما تتحول الى نوع من الهذيان غير الخاضع لعقل أو لمنطق ، لان الرغبة فى أن يقول المرء كل شىء تنتهى به فى الغالب ألا يقول شيئا على الاطلاق . ولكن بعيدا عن ثرثرة هذا السائق ، فهل هو حقا فى بلده الذى غادره ، وسط ظروف بالغة السوء ، قبل تسع سنوات ؟ أم أن الطائرة التى استقلها من برازيليا اتجهت به نحو عالم آخر دون انتباه منه ؟ لماذا لا يصارح السائق بطبيعة شكوكه ؟ ومرة ثانية فوجىء بالسائق يقول له :

ـ حضرتك سائح ؟ أم فى زيارة خاصة الى عنابيا ؟

« سائح ؟! » وفى عنابيا ؟ عم يتحدث هذا المهذار ؟ لو كان للبؤس بطاقة هوية لما حملت سوى الخاتم الرسمى لمختار عنابيا ، فسياحة الصيف فيها تقتصر على الافاعى السامة والبرغش والجرب وشتى أمراض العيون ، أما رجال الدرك وموظفو الامن العام وجلاوزة شركة التبغ الاحتكارية فهم سواح كل الاوقات ، خلال الصيف وخلال الشتاء ، تحيتهم شتيمة ، ومشيتهم شموخ وأحتقار ، وكلامهم تهديد ووعيد . « لا سائح فى عنابيا ! » شر الفكاهة ما يبكى . كانت الامهات تداوين الرمد فى عيون أطفالهن بقطرات من بولهن المقدس ، وكان المريض يموت قبل أن يصل الى الطبيب أو يصل الطبيب اليه ، وكان شعار نديم رضوان ناظر مدرسة القرية مستمدا من فلسفة وجودية

« عنابية » بحتة : « كل شيء باطل شكلا ومضمونا الوطـن والضمير والعلـم والجهل والهزيمة والنصر والايمان والكفر والعار والشرف .. الجدير بالاهتمام فقط هو أن يستمر المرء سكران حتى الانطفاء ، وأن يتناول كل أنثى تتاح له سواء كانت أنثى حيوان أو أنثى إنسان ، وأن يصل الراتب في موعده من آخر كل شهر ، وسيان بعد ذلك خراب الكون أو عمرانه » .

قال أحمد شمراني للسائق وهو يكبح شعورا في نفسه يشبه الغيظ :

ـ بل أنا من عنابيا نفسها .

فالقى السائق نظرة عاجلة الى الوراء وهو يقول متعجبا :

ـ من بلدة عنابيا ؟

ـ نعم ، من قرية عنابيا .

ـ ومتى غادرت البلدة ؟

ـ منذ تسع سنوات .

ـ وكيف لا أعرفك ؟

ـ لأنك لست من عنابيا .

ـ ولكنى أعمل وأعيش فيها منذ حوالى اثنتى عشرة سنة .

ـ غير معقول .

ـ بل هو الواقع يا سيدى .. عفوا ، ما هو اسم حضرتك ؟

تباطأ أحمد شمراني بالاجابة برهة قصيرة ثم قال :

ـ « أمادو شمار » .

ـ اسم غريب لم أسمع بمثله في عنابيا .

ـ وهل تعرف جميع أبناء عنابيا ؟

ـ بالطبع ، اثنتا عشرة سنة ليست بالمدة القصيرة .

ـ إذن تعرف علي شمراني مختار عنابيا .

ـ السيد علي شمراني هو رئيس البلدية منذ ما يقارب العشر سنوات ، وهو معروف من الجميع بفضل سهره الدائم على تطوير البلدة وتوفير الراحة لسكانها ، وقد أصبحت عنابيا بفضل ما حققه من مشاريع عمرانية وثقافية واجتماعية ، مفخرة المنطقة بأسرها . كما أعرف زوجته السيدة خديجة منذ قيامها بادارة معهد « الزهور » وحتى تقاعدها قبل سنتين .

عندما تتحول الثرثرة الى هذه الدرجة من السخرية تصبح مؤذية . عن أية أناس يتحدث السائق ؟ فعلي الشمراني هو أبوه ، والسيدة خديجة أمه . وكان أبوه يدعو زوجته بأم البنات استخفافا بها بعد أن ولدت ست بنات جئن تباعا إثر مولده هو ، أحمد شمراني ، في البدء ، هذا بالاضافة الى عدد من الاجنة أسقط في الاسابيع الاولى من الحمل خوفا من تزايد عدد الاناث في المنزل . وقد راودت أباه الرغبة في الزواج ثانية أملا بانجاب الذكور ، فهدده بالقتل اذا أحضر زوجة ثانية الى المنزل . وكانت أمه « السيدة » خديجة و « مديرة معهد الزهور » امرأة أمية بائسة لا تعرف من الحياة سوى إنجاب الاولاد والعمل في زراعة التبغ والانصياع الذليل لطلبات زوجها . فلماذا يلجأ السائق الى السخرية الجارحة في حديثه ؟ وما هي المشاريع العمرانية والثقافية والاجتماعية التي حققها أبوه في قرية عنابيا ؟

ــ وكيف حال الشيخ أمين الصافي ؟ هل هو إمام القرية دائما ؟

ــ الشيخ أمين ، أقصد الاستاذ أمين الصافي في أحسن حال ولا يزال مرشد البلدة ومستشار المجلس البلدي في الشؤون الاجتماعية ، وهو اليوم من أقطاب الاصلاح الديني ، وصاحب الدراسات المهمة على هذا الصعيد ، وبمساعيه أنشئت الدار العصرية للعجزة ، وألغيت دار الايتام بعد أن أدخل صغارها الى معهد الزهور حيث تتوفر لهم العناية العاطفية والتربوية شأن سائر صغار البلدة العاديين . كما أعرف زوجته السيدة فاطمة التي حلت مكان السيدة خديجة شمراني في الاشراف على معهد الزهور .

ــ ولكن الشيخ أمين كان قد طلق زوجته فاطمة بعد مرور سنة واحدة على زواجهما بسبب خلافهما المستمر ، وتزوج الشيخ بعد ذلك بامرأتين تباعا ..

ــ عمن تتكلم يا سيدي ؟ طلاق .. زوجتان .. كأني بك تتحدث عن فصول حكاية شعبية قديمة تركت بصماتها في مخيلتك . إنك تسيء الى الاستاذ أمين والى السيدة زوجته إساءة كبيرة .

ــ لم أقصد الاساءة ، يبدو أن هناك تطورات مهمة جدا قد طرأت على قرية عنابيا . ولا شك بأنك قد تعرفت بالمرحوم حميد المغربي مزارع التبغ ، قبل مصرعه في طبرنا .

ــ عفوا يا سيدي . أنت على خطأ ، السيد حميد المغربي ما زال حيا . وطيلة إقامتي في البلدة لم يحدث شيء مما تتكلم عنه ، ولا أذكر أن أحدا من

المواطنين قد انتقص حقه على نحو أو آخر . ومن ينتقص حق من ؟ الناس سواسية كشتلات التبغ ، بل لا وجود للجند إطلاقا ، لان المجتمعات البشرية لم تعد بحاجة الى هذه الظاهرة الطفيلية التى كانت من الاسباب الاساسية لانهيار المجتمعات القديمة وزوالها . حميد المغربى حى يا سيدى وهو أب لستة أبناء ذكورا وإناثا . ويوم أمس بالذات نقلت ابنته وفاء زوجة السيد عزيز الفهد مدير المدرسة الثانوية الى مدينة طبرنا ثم عدت بها مساء .

ـ مهلا ، يبدو أنك أنت المخطىء ، فأنا على يقين تام بأن وفاء ابنة حميد المغربى قد قتلت نفسها حرقا بالنار ليلة عرسها لان عريسها اكتشف بأنها لم تكن عذراء ، وبعد سبعة شهور أو ثمانية قتل والدها حميد المغربى برصاص الجند كما ذكرت قبل قليل ، وقد شاركت بنفسى فى دفنه ، وتزوجت ابنته الثانية وفاء من أحد معلمى المدرسة المدعو جميل كنعان والذى استشهد بعد شهور قليلة من زواجه مع نفر من أبناء القرية والقرى المجاورة فى معركة كبيرة وقعت اثناء اعتداء خارجى ، وأن الشيخ أمين الصافى رجل ..

ولم يستطع أحمد شمرانى الاستمرار فى سرد ذكرياته ، فقد التفت اليه السائق ورمقه بنظرة غريبة عقلت لسانه ، فتوقف عن الكلام وهو يراقب رأس السائق الذى استمر يهتز استهجانا كرقاص ساعة قديمة ، فيما بدأت زحمة السيارات تشتد على الطريق مما جعل السير بطيئا كمسيرة موكب جنائزى . وساد داخل السيارة صمت ثقيل مشبع بالرهبة .

ومع توالى المناظر الجميلة المدهشة على جانبى الطريق ، كانت الحيرة الممزوجة بالخوف تزداد وطأة على نفسه . ولو لا تردد الاسماء التى يعرف أصحابها ، على لسان هذا السائق الغريب لظن نفسه فى ظلمة كابوس رهيب . حاول جاهدا أن يستعيد بعض صفاء ذهنه ، فأغمض عينيه نصف إغماضة مسندا رأسه الى حافة المقعد : لقد قرر قبل تسع سنوات مغادرة قريته وسط ظروف بالغة السوء ، فبالاضافة الى الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على القرية ، وسوء الظروف المعيشية ، عرف سكان القرية بأنه كان السبب فى انتحار وفاء المغربى بعد أن غدر بها وتخلى عنها مما حمل أباه على التبرؤ منه وعلى طرده من المنزل لاعنا الساعة التى رزق فيها بمولود ذكر فتدبر أمره وغادر القرية الى البرازيل حيث أحد أقرباء والده منذ زمن طويل ، ولكنه لم يجد فى العاصمة البرازيلية أثرا لذلك القريب . وبعد فترة تشرد طويلة تمكن من الحصول على عمل فتحسنت أحواله ، ثم حصل على الجنسية البرازيلية تحت اسم «أمادو شمار» .

وها هو يعود الى عنابيا بعد غيبة تسع سنوات كاملة . إن ما يراه حواليه وما يسمعه عن سكان القرية يشبهان القصص الخيالية التى تعرضهـا أفـلام الصور المتحركة . فى الامر خطأ ما . وقطع صوت السائق هيجان الوساوس فى رأسه :

ـ اذا استمر السير على هذه الحال فان الليل سيدركنـا قبـل الوصـول الى عنابيـا .

« الليل ! » لم يكن ينقص ظلمة نفسه الا الليل . لا . لن ينتظر الليـل . سيفصح لهذا السائق عن حقيقة شخصه وعن اسمه الاصلى ليعـرى مـزاعمه الاسطورية ويعرى شخصيته المغلقة بالاسرار .

فسأله وقد شعر ببعض الارتياح :

ـ هل تعرف أبناء السيد علي الشمراني ؟

ـ أعرف بناته الست ، وجميعهن متزوجات .

« جميعهـن متزوجـات ؟ ! » لقد عاد اللعين الى هذره ، كانت شقيقتـه الصغرى ، أو نهاية المصائب كما كان يقول والده ، فى حـدود الثـالثة من عمرها يوم غادر القرية . فاذا أضيفت السنوات التسع ، مدة غيـابه ، يكون عمرها الآن حوالى الاثنتى عشرة سنة . فكيف يمكن أن تتزوج فى هذه السن؟

ـ وابنه البكر أحمد ، أتعرفه ؟

ـ أعرفه جيدا . كان شابا وسيما طويل القامة ، وكـان شديـد الاعتـداد بنفسه الى درجة التهور . وذات صباح ، قبل تسع سنوات تقريبا ، عثر على جثته ملقاة فى خارج القرية بين شتلات التبغ ، وقد ذبح المسكين مـن الوريد الى الوريد .

جـواد صيـداوى

بـاريس

فى العـدد القـادم ننشـر
خواطر من وحى ما قرأته عن قريـة الفـاو
بالمملكـة العربيـة السعوديـة
بقلـم د. محمـد حسيـن فنطـر

الحب والحرية

شعر : علال الهاشمي الخيارى
(المغرب)

سمرَاءُ .. هلْ يرْضِيك أن تختاري … هذَا الهوَى المحفُوفَ بالأخْطَارِ !؟
هذا الهوَى إنْ تَحجُبِي شُطآنَهُ … زَمنا ، فلِي شوْقٌ الى الإبْحَارِ
أنا في حَياتِكِ موْعِدٌ مُتَجَدِّدٌ … مهمَا أغِبْ .. لا تقبَلِي أعذَارِي

* * *

مَحْبوبتِي .. يا ذَاتَ حُسنٍ فَاتِنٍ … لم تَفهمِي رَأيِي وَلا أسْرَارِي
قد كنت شيئاً في يدَيك أضَعتِه … ماذَا يهُمُّك موْقِفِي وَقَرَارِي ؟
لا تسْألِي عَنِّي الهوَى أوْ نَارَهُ … إنِّي كتمتُ عن الهوَى أخْبَارِي
يا ذَاتَ حُسنٍ مُستَبِدٍ ظَالِم … صَعبٌ عليْك إذَا أرَدتِ إسَارِي
أنَا ما عشِقتُكِ كي أعيشَ مقيَّداً … من ذَا يُقيِّدُ هَائِجَ الإعْصَارِ ؟
قد قُلت يوْما : إنَّ حُبَّك جَنَّتِي … تندَى بعطرِ الوَرْدِ وَالأزْهَارِ
لا تَفْتَحِي أبوَابَهَا إنْ كَانَ لاَ … يرْضِيك ما أعلَنتُ منْ إصْرَارِ
أنَا جنَّتِي حرِّيَّتِي .. أسْمُو بِهَا … وَأصُوغُ منهَا في الحَيَاةِ شِعَارِي
مُتَحَرِّرٌ فكرِي .. وَيَعبُرُ زَوْرَقِي … لُجَّاتِ تيَّارٍ إلَى تَيَّارِ
كَالطَّيْرِ أشدُو بالمُنَى وَأرِفُّ من … فرَحٍ ، وَأسرَحُ كالنَّسِيمِ السَّارِي
الحُبّ عِندِي كالصَّبَاحِ يُضِيئُنِي … منهُ الشَّذَا واللحْنُ فِي أوْتَارِي
وَالحُبّ عندَكِ لعبةٌ ، لَكِنَّهَا … – ياذَاتَ حُسنٍ – لُعْبَةٌ بِالنَّارِ
إن كان شأنُكِ غيرَ شأني في الهوَى … وَمسارُ خطْوِكِ كانَ غيرَ مَسَارِي
فأنا أحِسُّكِ فِي رُؤَاى ، وَفِي دَمِي … فِي الحُبّ .. فِي حُرِّيَّةِ الأفْكَارِ

مع محمد مزالي في دراساته

بقلم حسن سيد لبيب
(القاهرة)

الاستاذ محمد مزالى أديب مفكر ، ووطنى من الطراز الاول ، مؤمن بعروبته ، غيور على اسلامه يناهض الاستعمار ، كاشفا أطماعه ، مدافعا عن أنبل الغايات بأشرف الوسائل . ويرى فى التربية علاجا ناجعا لجيل الغد. يقف الى جانب الحرية والديمقراطية ، وحقوق المواطن وواجباته ، كما يقف الى جانب الشرعية والعدالة والقانون .

هذا هو محمد مزالى كما عرفته من خلال كتابه القيم (دراسات) ، الذى صدر فى تونس عام 1974 ، ويقع فى ثمان وستين وثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط . يحوى الكتاب موضوعات متنوعة فى الفكر والادب والتاريخ والسياسة والتربية . أهم ما يميز الكاتب هو تحليله المستفيض ، ناظرا للفكرة من شتى الزوايا والابعاد ، عارضا الرأى والرأى الآخر ، ليستخلص فى النهاية الرأى الذى يراه صحيحا ، والمبدأ الذى تصلح به الامور وتستقيم .

وبرغم تنوع الموضوعات ، الا أنها تلونت بلون الكاتب ، وثقافته ومبادئه فيكاد يربط الموضوعات بعضها ببعض رباط وحدة الفكرة ، ولا غرابة فى هذا ، فان أفكار الكاتب وخصائص اسلوبه تتركز فى نقاط محددة ، تترابط فيما بينها ، لترسم فى النهاية معالم شخصية وفكر الكاتب الاستاذ محمد مزالى .

وتتلخص النقاط الاساسية لكتاب (دراسات) ، فيما يلى :

1 ـ الغاية والوسيلة : فالغاية لابد وأن تكون مقرونة بالوسائل الشريفة لبلوغها .

2 ـ التربية والاخلاق : قيمتان من القيم التى تبنى جيل الغد ، على أسس قويمة ٠

3 ـ الاستعمار : مهما قيل تبريرا له ، فانه يعمل لصالحه ، مستغلا الدول الواقعة تحت سيطرته ٠

4 ـ شرعية الحكم : واجبة الاحترام منعا للفوضى والمؤامرات ٠

5 ـ دول العالم الثالث : ما زالت متخلفة حضاريا ٠

6 ـ ايمان الكاتب بالحرية والديمقراطية ٠

7 ـ اهتمام الكاتب بوطنه تونس ٠

8 ـ اهتمام الكاتب بقضايا الشباب والمرأة ٠

هذه عناصر كتاب (دراسات) الاساسية ، أو هى جل أفكار الكاتب المستنير الاستاذ محمد مزالى ٠

* * *

(حقيقة يجب معرفتها) ، عنوان محاضرة ألقاها عام 1949 ٠ وهى دراسة جادة ألمت بظروف احتلال فرنسا لتونس ، نستخلص منها حقائق جلية عن الاطماع الاستعمارية فى البلاد العربية ، بدأت تلك الاطماع منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وفى أعقاب انهيار الامبراطورية العثمانية أو ضعفها ٠ ولو استقرأنا فصول التاريخ البعيد والقريب ، للاحظنا أن الاستعمار لبس أثوابا متعددة ، لكنه فى سلوكه العام يهدف أول ما يهدف الى استغلال قوانا ، وتسخير امكانياتنا وخيراتنا لصالحه ، وتبديد طاقاتنا لاضافة طاقة الى طاقاته ٠ والدول الاستعمارية تحرص على تبادل المصالح فيما بينها ، بحيث تسوى الخلافات بين هذه الدول ، على حساب اقتسام اراضى الغير ، او استغلالها ، او استلابها ، او نهبها ، او كل هذا معا !

وكتب عن (الغاية والوسائل) دراسة مستفيضة ، مقتفيا اثر مقولة مكيافيللى «الغاية تبرر الوسيلة» ٠ هل الغاية الشريفة تستوجب وسائل شريفة ، أم أن شرف الغاية ونبلها ، مبررا لاغفال الوسائل غير الشريفة ؟ وقد استهل بحثه بأن متطلبات العصر تلزم الفكر باختيار أحد موقفين : اما أن يتحمل مسؤوليته ويقتحم الاخطار ويتصدى للصعب ، للتعرف على مشاكله

وايجاد حلول لها • واما ينصرف عن اداء وظيفته وينعم بالراحة ، مؤثرا دنيا الخيال ، متساميا عن دنيا الناس وهمومهم • والانسان لم يقصد غاية واحدة ولم يلجأ لوسيلة واحدة لبلوغ غايته •• «فلكل حكيم مثل أعلى فى الحياة يسعى الى الدنو منه وما هو ببالغه » .. و « كل فريق يعتبر غايته (الغاية) فى حد ذاتها ، وينظر الى سلوكه على أنه الاوفق والافضل ، والغايات الاخرى ــ عنده ــ جهل مبين وزيغ وتضليل ، فكل يدعى وصلا بليلى ، وقيمة كل فرد مقياس لقيم غيره من الناس» •

واستقرأ الكاتب فكر كل من الدوس هكسلى وتوفيق الحكيم • الاول ينتقد الوسيلة القبيحة للوصول الى غاية جميلة • فالقبح والجمال ضدان ، ولا ينجم عن الشر الا الشر • ويستنكر هكسلى أن يستعمل «الانسان كمطية ويعتبر كموضوع ويعامل كواسطة» • ويرى أن التربية هى الحل ، فالتربية تنجب الانسان الكامل ، وتؤدى الى المدينة الفاضلة .

كذلك يرى توفيق الحكيم أن الغاية النبيلة والوسيلة غير النبيلة ضدان لا يلتقيان • فالطريق الى الشرف هو الشرف نفسه • يقول الحكيم : «لا يبقى أمام الجميع غير طريق واضح نظيف ••• اذا أوصلنا الى الخير فهو الهدف ••• وان لم يوصلنا الى اصلاح سريع ، فحسب العالم أنه سار فى طريق خال من الشر والقذر» •

ويؤسس الاستاذ محمد مزالى حكمه بعد استعراض آراء المفكرين الكبيرين، بأن هناك حساسية مرهفة فى ميدان الاخلاق تؤدى بصاحبها الى التخلى والقعود فيضحى بالالتزام والواجب ، وهما قيمة اخلاقية . والتنصل عن أداء الواجب نتيجة هذه الحساسية ، يجعل الغير يتمادى فى عمله غير الاخلاقى • وهو رأى له وجاهته وأهميته ، فالمقصود الا نقعد فى مكاننا سلبيين من أجل البحث عن وسائل نبيلة ، وهى دعوة الى طرح السلبية ، والاقتراب من الواقع •• وبرغم سوء الواقع وشروره ، مطلوب منا المساهمة فى تحسين الواقع قدر جهدنا ، فالحياة حياتنا نحياها سواء قمنا بدورنا أم تركنا الغير يؤدى دوره • واذا كانت القيم ستبعدنا عن ساحة الواقع ، فسيخلو الميدان « للواقعيين » ، ينفذون سياستهم بما تحمله من آثام وشرور .

وينتقد ما ذهب اليه الدوس هكسلى من أن التربية هى الحل . فليس سهلا أو ميسورا دائما تكوين جيل على نمط معين ، وتغرس فيه البذور الجديدة

من أجل الغاية المنشودة · واذا ما صممنا على بلوغ غايتنا أيا كانت السبل لذلك ، فان مبدأ اللجوء للتربية قد تقوض من أساسه . واذا ما تراجعنا لما نجابه من عراقيل ، فمعنى ذلك عجزنا عن بلوغ الغرض · ولما كانت التربية وثيقة الصلة بالاخلاق والدين ، فانها تلقى صعوبة لانه لم تتفق البشرية حول مبادىء الاخلاق والدين ·· والرأى للاستاذ محمد مزالى ، وان كنت لا أتفق معه فى هذا التحليل ، فمهما كانت خلافاتنا حول مبادىء الاخلاق والدين ، فان الانسان بفطرته يدرك الوسائل الشريفة وغير الشريفة ·· فالسرقة والجريمة والتجويع والتعذيب والسطو والكذب والنفاق وما الى ذلك من مسميات كلها وسائل غير شريفة ، يتفق فى هذا بنو البشر بمختلف مذاهبهم وعقائدهم . ولماذا ربطنا بين التربية وما بين الشعوب من اقتتال وصراعات حول مفاهيم الاخلاق والاديان ؟· وما القول اذا كان الدين ـ أيا كان ـ قد يستخدم وسيلة لتحقيق مأرب سياسى ، أو مطمع دنيوى ؟ باسم الحرية تسفك الدماء ويعذب الابرياء ، وباسم الحقوق المشروعة نلجأ الى الوسائل غير المشروعة . لماذا لا نقول : إنها اطماع بنى الانسان وأهواؤه ونزعته الشريرة التى تدفعه الى القتل والدمار ، والى ابتداع المقولة المكيافيللية «الغاية تبرر الوسيلة ؟» · لماذا ننحى التربية القويمة للانسان بحجة اختلاف بنى البشر فيما بينهم حول الاخلاق والدين ؟ ·

وللتربية آثارها السلبية ، شأن كل موضوع نتطرق اليه ، ذلك أن رجال التربية قد يضعون مناهج لا تتفق والخط العام للسلوك البشرى القويم ، مثل بث الاحقاد والكراهية ضد جنس أو دين أو لون أو قومية ، ورضع الاطفال بلبن الثأر . لكننا لا نستطيع الغاء التربية . ربما ليست الحل الامثل والكامل ، لكنها ستقودنا الى الافضل · فالتربية وسيلة لتنمية القيمة والمبدأ فى النفس البشرية ، لا سيما اذا اعتنينا بها منذ نعومة الاظافر ، حتى سن الشباب ، واعتبرناها صنوا للتعليم · واذا كانت للتربية جوانبها المضيئة ، الى جانب ، آثارها السلبية فى اختلاف النوازع والرغبات فلا شك أن المحصلة ستكون ايجابية فى خطها العام ·

وولج الكاتب باب الادب ، يبحث فى نواحى الابداع عن جواب لسؤاله ، فالادب تعبير عن الحياة ، فلجأ اليه كناحية تطبيقية ، واختار لهذا ثلاثة نماذج ·· واختياره لها يدخل مزاجه الخاص طرفا غير عادل · ولكنه قصد أن ينحو بالدراسة نحوا آخر ، يناقش من خلالها المقولة « هل الغاية تبرر الوسيلة ؟ » ، ثم ناقش نظرية كارل ماركس ، وما اذا كانت امتدادا لنظرية مكيافيللى ··

ويخلص منها الى أن «المستقبل لن يكون وليد المصادفة والبخت كما ذهب الى ذلك مكيافيللي بل هو مقيد تقييدا كاملا وهو مقبل على نحو معين موافق لطبيعة الاشياء • هو ـ حسب ماركس ـ لطبقة جديدة اخذت تعى نفسها شيئا فشيئا وتفرض وجودها بصورة مطردة ، هى طبقة الشغالين التى لا تحدد بزمان ولا بمكان ، ولا تقصر على مدينة أو بلاد ولا تحصر فى دين ولا لغة ، هى الطبقة التى يسميها (ماركس) : الشغيلة أو البروليتاريا» ص 72 ، 74•

واختتم دراسته بتحليل نظرية كارل ماركس ، ولم يقل رأيه فى النظرية حيث انه نشر بحثه فى مجلة (الندوة) عامى 1954 و 1955 ، ولم يكتمل لتوقف المجلة عن الصدور •

وفى موضوع (المواطن والدولة) ، فند النظرية الماركسية ، وما تزعمه من أن (الدولة أولا) وليس (المواطن) •• وباسم الطبقة الشغيلة او البروليتاريا، طبقت السياسة الماركسية ، والتى تغيرت وتلونت حسب (التصور) الذى يتغير مفهومه من عهد لآخر •

وفى مقال (مسؤولية الكاتب) ، يطرح عدة تساؤلات حول التزام الكاتب وحريته • وانتهى الى أن الكاتب ملتزم بالكتابة عن قضايا مجتمعه ، دون أن يجور على حريته فى الابداع الفنى ، وهى عبارة مصالحة بين الالتزام والحرية فالكاتب حر كفنان مبدع ، وملتزم كصاحب رأى فى القضايا المثارة • واعتقد انه اذا قلنا : إن الكاتب صاحب رسالة ورجل مبادىء ، فالبدء أن تكون هناك فكرة ، يسلس قلمه فى التعبير عنها • وللكاتب حرية اختيار الموضوع الذى يحبذ الكتابة فيه ، وللكاتب حرية ابداء وجهة نظره •• وفى هذا ، لا معنى لكلمة (الكاتب الملتزم) • فالتعبير يوحى بأنه يلتزم بخط معين مفروض من الخارج ، واذا أصررنا على التعبير ، لصححنا وضعه ، بأنه الالتزام بأفكاره، النابعة من داخله • فالكاتب يدلى بدلوه من خلال وجهة نظر يراها صائبة ، فيجلوها ، ويعمل على تأصيلها وتعميقها • فلكل كاتب رسالة يلتزم بها ، هذه الرسالة تعبر عن شخصيته وفكره ومعتقده • ومن نافلة القول ، التأكيد على تأثر الكاتب بالتيارات السائدة وظروف مجتمعه وما شابه ذلك • وما لم تكن للكاتب رسالة ، وقع فى المحظور ، وصار ما يكتبه أقرب الى رص الكلمات ، فارغة من المعنى والجوهر • فالكاتب حر فى التعبير عن آرائه وأفكاره ، لكنه يتبدى لنا من خلال مؤلفاته صاحب رسالة ••• أما الفن الابداعى ، فالحرية الكاملة شرط لهذا الابداع •

ويطرح الاستاذ محمد مزالى عدة أسئلة منها : هل اختلاف الآراء ضرورى؟ وما سببه ؟ ٠ والمشكلة فى رأيى ليست فى اختلاف الآراء ، فلا يمكن أن تتشابه آراء الكتاب ، أو أن يكون لهم رأى واحد فى موضوع ما ٠ واختلاف الآراء دليل صحة ، فالاختلاف يؤدى الى الجدل والحوار ، وفى هذا تمحيص للفكرة ، وتأصيلها ، وتعميقها ٠

وبحكم منصبه بوزارة التربية ، واجتماعه بمديرى المدارس ٠٠ ألقى كلمة عن (التربية أولا) ٠ قال فيها :

«اننا اعتنينا خاصة بالمستوى العلمي والفني والبيداغوجي وهو شيء جميل في حد ذاته ولكننا لم نعتن العناية الكافية بالروحانيات وفي هذا خطر وأي خطر ، فلا يغرننا وجود أعلام تونسية ترفرف ولا يغرننا ما نشاهد من مقومات سياسية مجسمة في الدولة والبرلمان والجيش والديبلوماسية ، فهذا كله ضروري وقد كسبنا منه الكثير بفضل جهادنا وتضحيات الشهداء ونضال المناضلين لكن القضية أعمق من ذلك اذ هي قضية حضارة قبل كل شيء ونظرتنا الى تاريخنا ينبغي ان نتجاوز فيها تاريخنا القريب الى تاريخنا البعيد لنتبين كيف أن التبعية والاستعمار انما يسلطان علينا من الداخل قبل أن يتسلطا علينا من الخارج » ص ١١٩ .

والكلمة وان خص بها تونس ، لكنها تنطبق على حال المنطقة العربية كلها٠ شغلتنا قضايا التحرر والاستقلال ، ثم تبعثرت قوانا فى حل منازعات وخلافات ، ونشبت حروب ، وحدثت مقاطعات سياسية ، وما زالت قضية فلسطين هم العرب الاول ٠٠ كل هذا يؤثر على كوننا نساير العالم فى تحضره ، أم نقف محك سر ، أم نتخلف عنه . وبدلا من أن نتكامل فيما بيننا ، وندعم قوانا ونستفيد بامكانياتنا المتاحة ، تتبدد القوى وتضيع الفرص وتستنزف الثروات . وداخل الدولة العربية الواحدة ، قد تفتتها منازعات وخلافات بين اتجاهات سياسية أو طائفية أو اقليمية ٠ واذا ما نعمنا بالاستقرار ، لم نأخذ بأسباب الحضارة ، فالعالم يتقدم بسرعة صاروخية رهيبة ، وأصبح عالم الحاسبات والميكروحاسبات والالكترونيات٠٠ بينما نحن فى الاغلب الاعم بلاد مستهلكة ، وان انتجنا فمجالات الانتاج محدودة وقد لا تغطى الاحتياجات المحلية باستثناء يؤكد القاعدة ٠٠

والاستاذ محمد مزالى فى كلمته المستنيرة ، أحس بحاجتنا الى الاخذ بسبل الحضارة وننظر فى بيتنا الداخلى وننظر مدى ما تحقق لنا من استقلال

حقيقى . والحضارة ان اقتصرت على المادة فحسب ، قضى عليها بالفشل والانهيار ، انما لا بد من الجناح الثانى وهو الروحانيات ، كى نحلق فى سماء التقدم ، ولتتميز حضارتنا بطابع الشرق ٠

ويمتعنا حديثه عن المرأة مستعرضا صور كفاحها ٠ ان دور المرأة لا يقل أهمية عن دور الرجل ٠ وارتداء الحجاب او رفعه ليس بصميم القضية ، فهى من الامور التى ألهانا بها المستعمرون . وديننا لم ينتقص من حقوق المرأة شيئا ٠ ثم أكد على أهمية تعليم الفتاة التونسية مع مراعاة استعدادات المرأة الطبيعية وصقل مواهبها الفطرية وترك ما يتعارض مع أنوثتها ، مع الحفاظ على روح الاسلام ومبادئه ، والالتزام بأهداب الفضيلة والاحتشام ، وتزويدها بقسط وافر من الآداب والعلوم ومبادىء التربية وعلم النفس ونظام البيت وفنون الطهى والخياطة والفنون الجميلة كالموسيقى والرسم ٠

وحديثه عن (تعليم الفتاة التونسية) هو المحاضرة التى ألقاها وهو طالب عام 1949 ٠ ولعل بعض التفاصيل والافكار تغيرت الآن ، واقتحمت الفتاة التونسية المجالات المختلفة شأنها شأن اختها فى كل قطر عربى ٠ وبالنسبة للحجاب ، فلعل الاستاذ مزالى يلحظ أن المرأة بعدما خلعته واعتبرت ذلك نوعا من التطور والتحضر ، عادت فى أيامنا هذه الى ارتدائه كنوع من الاحتشام والتمسك بأهداب ديننا الحنيف ، وخاصة فى مصر ، مع التزامها بالعلم والثقافة ومسايرة الرجل فيما يتقلد من وظائف وما يقوم به من أعمال .

وعن حقوق المواطن وواجباته ، يستفيض فى المقارنة بين الديكتاتورية والديمقراطية ٠ تنشأ الحقوق والواجبات فى النظام الديمقراطى ، الذى يعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ٠ وفى ظل الديمقراطية ، الجميع متساوون ، والحرية حق مقدس للجميع ، مقابل التزام الجميع بالقيام بواجباتهم ٠ ويعرف الاستاذ محمد مزالى المواطن الصالح بأنه «من مارس حقوقه حقا حقا وقام بواجباته كلها على أحسن وجه وأكمله» ص 166 ٠

وقد حدد الكاتب مفهوم (الامة) بأنها تعنى (الدولة) ٠ فدولة (سويسرا) تعنى (الامة السويسرية) ، ودولة (لبنان) تعنى (الامة اللبنانية) ٠٠ وكان ينبغى أن يضيف المعنى الاوسع للامة ، فالامة قد تعنى الدولة الواحدة ، وقد تعنى عدة دول ٠٠ فمفهوم (الامة) قد يتعدى حدود الدولة ٠ قد ينضوى

تحت لواء (الامة) مجموعة دول ، مثل الامة العربية ، وتعنى الدول العربية فى كل من قارتى آسيا وافريقيا • هناك شعب لبنانى وشعب مصرى وشعب تونسى وهكذا ، وكل شعب ينضوى تحت لواء دولته ، ويربط بين هذه الشعوب الاحساس بالقومية العربية ، والانتماء للعروبة •• فروابط العروبة كاللغة والدين والاحساس بالآمال والآلام والتاريخ المشترك ، تجمع الشعوب العربية أمة واحدة •

وما نشهده على الساحة العربية من تفكك وتأزم ، من خلافات ومقاطعات ، ليس الا صنيع الانظمة الحاكمة ، فهى صراعات بين دول عربية ، أو قل بين حكام عرب ، ولا دخل للشعوب العربية فى هذا • فالانتماء العربى مبثوث فى وجدان الجماهير العربية ، وروابط الاخوة ووشائج جسور تضامن وتآخى بين أبناء العرب • أليس فى كل هذا ما يؤكد المعنى الاشمل والاعم لمفهوم (الامة) ، فلا نقصر معناها على حدود (الدولة) فحسب ؟ • الدولة محددة دوليا بحدود جغرافية ، لها دستورها وحكومتها ، وسلطاتها التشريعية والتنفيذية وما الى ذلك ، بينما الامة تتعدى هذه الحدود ، وتكون الصق بنبض الشعوب •

والعلاقة بين الدولة والمواطن ، شغلت أذهان المفكرين والفلاسفة على مر القرون •• وأهم النظريات ثلاث : الاولى تدعو الى تقديس الدولة • فالدولة أولا وآخرا ، كما تدعو النظرية الماركسية ، لكنها فى سبيل ذلك أخلت بحقوق الافراد •• فتقديس الدولة يؤدى الى الاستبداد ، وهضم حقوق الافراد • والنظرية الثانية تنادى بتقديس الفرد ، كما تدعو الوجودية ، فأدت الى الفوضى والاخلال بالاستقرار والنظام • أما النظرية الثالثة ، فتحاول التوفيق بين احترام الدولة وبين حرية الفرد ، وهى ما تسمى بالديمقراطية ، التى تقر المساواة وتعطى لكل فرد صوتا • لكنها قد تؤدى الى سيطرة عديمى الكفاءة •• فالنظريات التى تؤكد على وجوب احترام الدولة والقانون والمؤسسات تصيب ناحية مهمة جدا وهى توفير أسباب الامن والطمأنينة لكل فرد وهو أمر يتوق اليه ويطالب به كل مواطن وكل انسان مهما عظم شأنه أو صغر ، والنظريات الفوضوية مصيبة فى ناحية من نواحيها عندما تؤكد على وجوب احترام الفرد وتقديس الفرد وصيانته من جبروت الجماعة ، والديمقراطية تستنبط طريقا طريفا للتوفيق بين الفرد وحريته من جهة والدولة ونظامها من جهة أخرى ورأينا فى آخر الامر أن

القضية هى قبل كل شىء قضية فضيلة واخلاق وتربية ومستوى عقلى» ص 236 ، 237 .

انتقد الاستاذ محمد مزالى النظام الرأسمالى ، الذى يجعل مقدرات الامور فى أيدى الاغنياء ، حتى وسائل الاعلام والتلفزة ، والصحافة ، كلها تخضع لسيطرة رؤوس الاموال . والوسائل السمعية والبصرية تفرض نفوذها حتى على الطفل ، مما يجور على ما يسمى حرية الشخص ، لان هذه الوسائل تؤثر فى تنشئته وتكوينه منذ الصغر ، وهذه المجتمعات تتحرك على أساس الديمقراطية الاقتصادية ـ على حد تعبير الكاتب ـ وأحل لنفسه فرض النظام بثورات وانتفاضات دامية . وسرعان ما اختلفت الدول الشيوعية فيما بينها، وكل يدعى لنفسه أنه يطبق النظرية الماركسية التطبيق السليم .

ويخلص الكاتب الى أن كلا النظامين ليس فيهما مصلحة ننشدها ، انما كل يفرض نفوذه لمصلحته الخاصة ، فالمصلحة هى الغاية . ويخطط المعسكران الشرقى والغربى لصالحهما ، ومغانمهما ، وما الشعارات أو النظريات سوى وسيلة لتحقيق ما يبغيان ، وهذا بيت القصيد . وليت القيادات العربية تعى هذا جيدا .. فالاستعمار لم يترك بلادنا الا بالقوة وعندما أصبح بقاؤه يشكل عبءا اقتصاديا .

★ ★ ★

وفى الفصل الاخير ، تحدث عن الاديب والسياسى التونسى على البلهوان مستعرضا نضاله من أجل حرية وطنه الحبيب ، ونشاطه الادبى . وكيف أن دراسته فى السوربون لم تصرفه عن قراءة أمهات الكتب العربية ، فألف دراسة عن (ثورة الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالى) .

آمل أن نقرأ للاستاذ محمد مزالى مؤلفات أخرى فى ميادين الفكر والادب والتاريخ ، داعين الله ألا تكون مشاغل المنصب حائلا دون مواصلته للكتابة.

حسنى سيد لبيب

(القاهـرة)

كلمات على وشام امرأة اسمها : الأرض

شعر : محمد المهدي بن نصيب

راحِلٌ أنتَ في مُدنٍ تتفتّحُ فيها المَحبّةُ والعشقُ
يغمرك الشوقُ
يحضنك الأفقُ
والأفقُ يصبغُهُ النّور بالفجر
يا مُوغلاً في المَسير إلى مدنِ الحُبّ
ممتطياً صهوة الشعر
والحرفُ يسبحُ في زرقة البحْر
يُغنّي نَشيدَ الشراعْ
هي الكلمات اللواقح سنبلة تنبتُ في حقول المواعيد
أرغفة للجياع
وكل الطيور التي حلقتْ في حقول القصائدْ ...
هي – الآن – مثلك يدفعها الأمل – الحب نحو الأماني
هي – الآن – مثلك تنشد لحنك للشمس
واللحن أنشودة الأرض
أهزوجة الفقراء :
(عروس هي الأرض زينها الفقراء بماء الجبينْ ،
عروس هي الأرض خضّلها العرق المتدفق من
جسد الكادحينَ).
اصطحبْ في المسير يداً قدْ تشقّقتِ الكفّ فيها

لأن الضياء الذي فاض من أعين الصَّحب عند احتضان
المناجل في الحقل : هو الشمس .
(ربما أشرقت من شقوق الأكفِّ
ومن سعف النخل)
هو الأفُقُ المُتدفقُ
ثوب الزفاف الذي ترتديه التي : اسمها الأرضُ .
هو الحب يتَّشحُ – الآن – بالنورِ
هو الشعرُ
والعرس
يا موغِلاً في المسير إلى مدن الحبِّ
أقْدِمْ إلى واحة النَّخْل ، أسْمِعْ رفاقك أنشودة الكدح
موال كسب الرغيف .. اقتبس
من لهيب العزائم ألسنة الأغنياتْ
لأن السواعد في واحة الخصْبِ تَغْزل فجر الحياةْ

محمد المهدي بن نصيب

من قصائد الأعداد القادمة

مواسم ظامئة للرى	أحمد الحباشه
مشاهد على لوحة 26 مارس	شعبان يوسف
شعراء تشيكيون	محسن بن حميده

نظرة في رواية « عائشة » وشخصياتها

بقلم : محسن بن ضياف

إن الرواية ذلك النوع الملحمى الكبير ، ذلك التصوير الحكائى للكلية الاجتماعية . هى القطب المقابل لملحمة العصور القديمة ونقيضها الجذرى . فالشكل الكبير الاول للتصوير الملحمى للمجتمع بأسره ، أى الملحمة الهوميرية التى تعكس الى حد كبير الوحدة البدائية للرابطة العشيرية باعتبارها مضمونا اجتماعيا حيا مولدا للاشكال تقع فى احد قطبى الشعر الملحمى الكبير . بينما يشغل القطب الآخر الشكل النموذجى لآخر مجتمع طبقى : الرأس مالية . وهذه المقابلة تتيح لنا أن نكشف على أجلى نحو وأوثقه قوانين الشكل الروائى ، اذ بفضل هذه المقابلة تحديدا تبرز الى النور المشكلات الاجتماعية الفاصلة التى حددت شكل كل من الملحمة والرواية . وتتحرر من كل الالتباس الذى يحيط بها فى شتى الاشكال الوسيطة والاعمال الادبية الهجينة أى فى « الرواية » القديمة والملاحم الحديثة (١) .

فـ « عائشه » هذه الرواية الطريفة للبشير بن سلامه والتى تقوم أساسا على السرد تعتبر رواية لها ملامحها المميزة التى تختلف عن سمات أغلب روايات الكتاب التونسيين المعاصرين لابن سلامه اذ كان نزوع هؤلاء الكتاب منصبا على الحداثة فى ميدان كتابة الرواية واعنى بهم كتاب السبعينات الى اليوم على أن الروائى البشير بن سلامه لم يذكر لنا تاريخ شروعه فى كتابة هذه الرواية الضخمة الرباعية ولذا نحن مضطرون الى اعتبار تاريخ الطبع وهو سنة 1982 هو الاساس أى رغم حداثة هذه الرواية فانها تعتبر فى نظرى رواية

---

(١) جورج لوكاش ـ الرواية كملحمة بورجوازية ـ ترجمه ج. طرابيشى ص ٩ ـ ١٠ ـ دار الطباعة ـ بيروت .

كلاسيكية فى منحاها الكتابى . وليس ذلك بعيب اذ لكل كاتب منهج يتوخاه ويسلكه يعجبه فيعبر من خلاله عن خلجات نفسه ورؤيته باللون الذى يختاره قصة أو رواية أو مسرحية .

بدأ الكاتب بحلقة فتحها فى أول الرواية وقفل الحلقة فى نهايتها وهى تذكر على يوم موت « عائشه » رفيقة صباه وما عانته الا أنه يبدأ القصة من الاول يبدؤها من لحظة ثورة أبيها وهو فى القرية على حياة السوائم التى يعيشها القرويون انذاك وتخطيطة للفرار الى تونس ليعيش حياة أفضل مثل عمه الذى تبول على القرويين الجالسين قرب الحائط وهو يقول عنهم انهم ـ قواسى ـ .

وزمن هذه الرواية ممتد ومتسلسل يبدأ من أوائل القرن العشرين وينتهى بعد الحرب العالمية الثانية بسنوات .

وتأخذ الرواية بتلابيب الكاتب وروايتها دائما مبنية للمجهول . فلا يستطيع التخلص منها فيروى لنا كل شىء .

رواية « عائشه » اذا أردنا ان ننظر اليها من زواياها المختلفة نستطيع أن نقول عنها إنها رواية احداث لكثرة ما تتراكم من احداث من الصفحة الاولى حتى الاخيرة رغم كثرة شخصياتها وتعددها وسنركز فى هذه الدراسة على الشخصيات عند البشير بن سلامه .

وشخصيات رواية « عائشه » نوعان شخصيات نامية تنمو وتتطور شيئا فشيئا مثل شخصية طاهر وعادل و « عائشه » وشخصيات مكتملة غير نامية مثل شخصية الفريك مصطفى وأبى محمد والد طاهر ودوجة وغيرها .

وطرافة الشخصية الروائية تتجسم فى الشخصيات النامية التى نراها تنمو امام أعيننا وتتحول من حالة الى حالة بحكم ما تطرأ عليها من ظروف وتدخل عليها من تقلبات .

ولكن رغم ما فى الرواية من شخصيات نامية لا نشعر أن الكاتب يعنى بالتحليل النفسى لشخصياته ولكن هو تفسير بعض الاحداث والاضطرابات النفسية التى تعيشها الشخصية وقد يتدخل المؤلف فى تعليقه عليها ولكن فى أماكن قليلة .

على أن الكاتب عامة سواء بن سلامه أم غيره « يعمد فى رسم شخصيات قصته الى وسائل مباشرة (الطريقة التحليلة) واخرى غير مباشرة (الطريقة التمثيلية) ففى الحالة الاولى يرسم شخصياته من الخارج يشرح عواطفها وبواعثها وأفكارها وأحاسيسها ويعقب على بعض تصرفاتها ويفسر البعض الآخر . وكثيرا ما يعطينا رأيه صريحا دون ما التواء . اما فى الحالة الثانية فانه ينحى بنفسه جانبا ليتيح للشخصية لتعبر عن نفسها وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة . وقد يعمد الى توضيح بعض صفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الاخرى عنها وتعليقا على أعمالها (2) وابن سلامه ينحى المنحى الاول ونرى تعليق الكاتب على شخصياته من أول القصة اذ يقول عن « عائشه » :

لم يكن يتصور أن « عائشه » المراحة المقبلة على الحياة أملا وذكاء وفطنة ستلعب بها عواصف الدهر بمثل هذه السرعة وبهذا العنف المدمر (3) .

لقد عرف أن اللذة والالم هما اللذان أسرا كل من عرفهم حوله فى صغره وشبابه وقل أن وجد للعقل مكانا كبيرا عندهم ... (4) .

على أن من أبرز الملامح التى رسم عليها الكاتب شخصياته وقد كان هو الكاتب والراوية معا . من ابرز ملامحها أنها تنغمس فى اللذة والجنس الى حدود بعيدة بماذا يمكن تعليل هذا الانغماس فى الجنس الى حد التهالك سواء الطاهر أو عادل أو « عائشه » أو دوجة أو غيرهم إن شخصياته لا تعانى كبتا بل بالعكس تعانى من الانغماس فى اللذة والجنس الى حد الشذوذ .

لعل الكاتب أراد أن يبرز النزعة الواقعية من الرواية من وراء الجنس والشذوذ الذى لاحظناه بجلاء لدى عادل أولا ثم عند طاهر فى أوخر القصة. فماذا أراد أن يصور الكاتب فهل أراد أن يصور انغماس المجتمع فى ذلك الزمن فى اللذة لا أظن ذلك انما نزع الكاتب منزعا واقعيا فى روايته ومن ملامح الواقعية الجنس اذ الحياة لا تخلو من الجنس فهو عماد حياة الذكر والانثى

(2) الدكتور يوسف نجم ـ فن القصة ـ ص 98 ـ دار بيروت للطباعة والنشر .
(3) « عائشه » ـ ص 9 .
(4) نفس المرجع ـ ص 9 .

الا انه بلا شك هناك فارق بين الجنس الممارس طبيعيا وباعتدال وبين التهالك على الجنس .

وبقطع النظر عن الجنس اذا أردنا أن نقف عند شخوص بن سلامه نجد أثرى شخصية فى روايته هى عادل ثم طاهر ثم « عائشه » وناصر .

عادل شخصية إنسانية تمثل طبقة كانت موجودة فى تونس هو ابن الاثرياء الذى تعلم وثار على وضعيته ولكن عوض أن تكون ثورة عادل ايجابية تتجه الى الاصلاح اصلاح ما أفسده آباؤه أو على الاقل الابتعاد عن ذلك والانغماس فى الطبقات الشعبية للرفع من مستواها وتوجيهها الوجهة الثورية القويمة ضد الاستعمار كما نلاحظه فى واقع الحزب التونسى فالكثير من أبناء البرجوازية المتعلمين يتجهون الى الاحزاب السياسية ويثورون على وضعيات مشينة يعيشها الشعب التونسى وكان منهم الزعماء والقادة فى الكفاح التحريرى . الا أن عادل ثورته كانت سلبية لانه عوض أن يتجه الوجهة الايجابية رغم ثقافته واطلاعه الواسع . لكن الكاتب يشاء له أن يكون مرفوضا من الطبقة البرجوازية التى ينتمى اليها ومن الطبقة الشعبية التى لا تشق فيه فينغمس فى اللذة والثورة على حالته ويتمنى أن يدك القصر باهله فيقول :

« أنا يا طاهر ضحية المجتمع الذى أضاع قيمه الانسانية ولم يقدر على الايمان بقيم هؤلاء القوم الاجانب الذين يحكمون اليوم . أنا غير قادر على أن أحب كما يحب اجدادى ولا أن أومن ايمانهم ولا أن أجاهد سياسيا جهادهم ولا أكون أديبا مثلهم أنا الذبذبة بعينها والخذلان المجسم (5) على أن الشخصية السلبية ذات قيمة وثراء فى القصة تفوق الشخصية الايجابية .

اذن شخصية عادل غير سوية منحرفة شاذة حتى عن القاعدة والواقع . لذا أشعر شخصيا أنها متكلفة وأن الكاتب تدخل بقوة وشكلها على هيئة لا نقبلها بيسر وسهولة خصوصا تلك النهاية اذ يخرج من كل ثروته الطائلة ويدخل السجن فى آخر الامر .

وتعليلى أن الكاتب مسكون بالواقعية ويريد أن يجعل الاشياء قاتمة سوداء لهذا رسم هذه الشخصية هذا الرسم الذى لا يقبله القارىء والناقد بيسر

(5) « عائشه » — ص 78 .

وسهولة . خصوصا وقد عرفنا أمثاله في المجتمع التونسي كان لهم مسار غير هذا المسار ففي ثقافتهم ما يحميهم من الوقوع فيما وقع فيه عادل من افلاس وثورة سلبية نظرا لوعيهم .

أما طاهر فهو شخصية غريبة هي الاخرى فهو نموذج بشرى قروى عمل على الانتقال الى العاصمة والانخراط في الدراسة بجامع الزيتونة ولكنا لا نشعر أنه يرمى الى تثقيف نفسه والخروج من حالة الجهل الى المعرفة ولكن الفكرة التي كانت لا تخلو من السيطرة عليه فهي الحصول على شهادة تحميه من الانخراط في الجيش الفرنسي وخصوصا طموحه الى العيش عيشا محترما يختلف عن حياة البؤس التي يعيشها القرويون الا أن طاهر بعد سنوات قليلة نجده يسأم هذه الدراسة في جامع الزيتونة بدون تعليل ويطمح الى العمل في شركة الترامواي ويسعى الى احد أقاربه ليقرضه مالا يدفعه رشوة للحصول على عمل بالشركة المذكورة .

ولا نجد في الرواية تعليلا مقنعا لهذا الانقلاب الذي يطرأ على طاهر . إن كان ما يعانيه من عنت الفقر فهذا أمر طبيعي لكل طلبة العلم في الجامعات الاسلامية كالزيتونة والازهر والقرويين فان الاستعمار لا يشجع على التعليم بهذه المؤسسات العلمية رغم تخلفها في مجال العلم فلا يتعلمون لغة اجنبية ولا علوما صحيحة ولكن مثل هذه المعاهد كانت معاقل للوطنية وللروح العربية الاسلامية التي يريد الاستعمار القضاء عليها لذا لا يجود بمنح على طلبتها ولا يتدخل في شؤونهم انما يعارض كل مطالب الاصلاح اصلاح التعليم بها مهما كان نوعها .

اذن شظف العيش ليس مدعاة لترك جامع الزيتونة ليستعيض عنها بعمل أقل ما يقال عنه أنه يتفق ووجهة نظر أبيه . لذا فان أبي محمد يحاول انقاذ ابنه فيحمله الى صديقه الفريك مصطفى ويقدمه اليه ومنذ تلك اللحظة تتغير حياة طاهر ويفتح في وجهه كما يقول هو باب العرش أي باب السماء ويبدل الله حاله من حال الى حال من طالب مسكين يغالب العيش وشظفه الى ربيب القصور ومصاحب البلدية ـ البرجوازية ـ وما يتبع ذلك من حياة لم يكن يحلم بها . فأصبح يرتدى البدلة الانيقة بعد الجبة ويتألم لرفاقه القدامى كيف يعيشون في البؤس والفقر المدقع ولم يلبث حتى انقطع عنهم فلم يعد يتردد عليهم حتى ذلك اليوم من الاسبوع الذي يذهب فيه معهم الى المبغى اذ عوضته دوجة عن ذلك وأصبحت تأتيه لفراشه ويتمتع بها ويؤنبه ضميره قليلا على

تدنيس هذا القصر بفعله ولكنه سريعا ما ينسى ذلك ويزداد طموحا فيريد أن يتزوج من زبيدة التى أعجب بجمالها وبشخصيتها الرصينة وجمالها الهادى الفتان . ويحقق مطمحه فيتزوجها . وعاشا فى القصر عيشة أبناء القصر ولم يلبث حتى رزقا بـ « عائشه » التى أصبحت محط انظار أهل القصر .

وبينما هما فى رغد العيش وأتم سعادة اذ يحصل سوء تفاهم بين عادل وطاهر فيصفع عادل طاهر وتقوم القيامة فى القصر ولا يرى طاهر من حل الا أن يسافر الى قريته فيبقى هناك أياما ويستأذن الفريك فيأذن له . لكن فى غياب طاهر تقع زبيدة فى حبائل عادل وتمارس معه الجنس وتكرر ذلك وتحمل منه . فيغض الطرف عن صفعة طاهر ويعود طاهر من قريته ويواصل حياته فى القصر كما تعود الى أن تضع زوجته مولودها مولودا ذكرا . جميلا جدا يكتشف فيه طاهر انه ليس ابنه بل ابن عادل ومنذ ذلك الحين قرر ترك القصر وحمل زوجته معه وطلب من الفريك أن يبحث له عن عمل يعيش منه وكان ما أراد طاهر واكترى بيتا متواضعا حمل اليه أسرته الصغيرة وأصبح لا متنفس لهذه الاسرة الا باب السطح لذا سمى الفصل باب السطح .

وفى هذا الفصل الذى يبدأ من الصفحة الخامسة والتسعين نبدأ رحلتنا مع « عائشه » .

وتتغير حياة طاهر فيبقى زوجته فى هذا البيت المتواضع ويحمل ابنته معه أينما اتجه ويقدمها الى رفاقه ويختلط بالنوادى ويكون له يوم فى الاسبوع هو يوم شرب الحشيش فيستمتع فيه بسماع الراشدية من المقهى المواجه لبيته وهو يدخن التكرورى اذ تطورت حياة طاهر وتغيرت ويغتنم فرص زيارة زبيدة الى قصر الفريك ليأخذ بعض التحف التى جلبتها معها فيبيعها وتتحمل زبيدة ذلك وتدرك أنها ثمن زيارتها الى قصر الفريك كلما اشتاقت اليهم .

ثم تأتى الحرب العالمية الثانية وتعرف الاسرة الجوع والحاجة . وكان طاهر قاسيا مع ابنه ناصر يضربه ضربا مبرحا كلما بلغه انه ترك البيت وخرج للعب فى الشارع فيعامله معاملة غير الوالد ويحب طاهر سكيلة ويعمل على الزواج بها ويتحقق له ذلك حين يعين بعيد الحرب العالمية نائبا لادارة المال بقريته فيكترى دارا عتيقة ويجعل احد حجراتها له ولزوجته الجديدة سكيله ويهجر زبيده فى حجرة أخرى مع ابنائها .

وتتزوج « عائشه » وتكون المصيبة التى تنزل على رأس زوجها وأبيها عند اكتشاف انها مفتضة فتتغير حياة طاهر مرة أخرى ويترك أهل الدار ويتخذ لنفسه غلاما يعاشره ويهجر أسرته . ويقتر عليهم فى الانفاق من ماله وينفصل كل ما كان يربط بينهم .

تلك هى شخصية طاهر وكيف تطورت من القرية الى المدينة الى القصر الى الحى الشعبى الى القرية من جديد وهكذا من الزيتونة الى القصر ومن القصر الى الانحراف والتكرورى وتعدد الزوجات والتعرف على أوساط الفن الى الشذوذ أخيرا .

شخصية طاهر شخصية رئيسية أخذت أكثر من نصف صفحات الرواية الى حد يجعل القارىء يتساءل لماذا لم يسمح الكاتب هذا الجزء باسمه ـ طاهر ـ ولكن ربما رأى أن تسمية الاجزاء الاخرى القادمة علي وعادل وناصر يكون من الاوفق أن يسمى أحد الاجزاء باسم مؤنث « عائشه » ولو أن « عائشه » فى الحقيقة احتلت قسما كبيرا من الجزء الاول المعنون بـ « عائشه » .

وينتقل الى شخصية أخرى هى شخصية ناصر كما بدت فى هذا الجزء . فهو ابن زنا حملت به زبيدة سفاحا من عادل عندما كان زوجها طاهر متغيبا فى قريته بعد الخصام الذى شب بينه وبين عادل ويصر عادل على الانتقام من طاهر فتحاول زبيده أن تثنيه عن هذا العزم ولكنها تقع فى شراكه أو لعلها كانت تميل اليه من حيث لا تشعر فتستسلم له بكل يسر وسهولة وتكرر معه ممارسة الجنس وتعجب بطريقته فى ذلك وتتجاوب معه أكثر مما تتجاوب مع زوجها طاهر ولما تضع زبيده مولودها الجميل الطلعة يكتشف طاهر انه ابن عادل ويكن له حقدا وكراهية كبيرين ويعامله معاملة قاسية ويضربه ضربا مبرحا ويهمله حتى فى دراسته ولما يكبر يسجن فى قضية أخلاقية وتنتقل الاسرة الى القرية تاركة ناصر فى السجن وقد تخلص منه طاهر ولكن لا يلبث حتى يطلق سراحه بعد قضاء المدة المحكوم عليه بها فيلتحق بهم فى القرية ومنع طاهر زوجته سكيلة من مكالمة ناصر أو الحديث معه ويهددها بالطلاق إن هى فعلت لمعرفته أخلاقه السيئة وانه لا يتورع عن أى شىء . ولكن الفتى يكتشف فى احدى الليالى مفاتن زوجة أبيه ويقر قراره على أن ينال منها أربه انتقاما لأمه من هذه المرأة التى ازاحتها وانتقاما من أبيه ويفاجئها احدى المرات فيختبىء فى حجرتها وينال منها مبتغاه وقد مهد لذلك مرات بأن يكشف لها

عن قضيبه . وتغرم سكيله بناصر وتنال معه أمتع لحظات اللذة فى كل ليلة وهى تتظاهر بانها تقضى الليل فى تطريز الثياب الى أن يشك طاهر فى الامر فيطرد ابنه من داره فيكترى لنفسه دكانا فى القرية ويستقر به .

أما « عائشه » الشخصية الرئيسية والتى سمى هذا الجزء من الرباعية باسمها فهى فتاة مهذبة هادئة الطباع ذات تربية عالية ولدت فى قصر الفريك مصطفى وهناك نشأت وترعرعت ثم انتقلت مع الاسرة الى البيت الصغير بالحى الشعبى نهج الباشا وكان أبوها يحبها حبا مفرطا ويأخذها معه الى النوادى والمسارح ولكنه لم يدخلها الى المدرسة ولم تنل حظا من التعليم أو الثقافة وعندما تنتقل الاسرة بعيد الحرب العالمية الثانية الى القرية ويتزوج أبوها سليكه يستهويها سالم ابن زوجة أبيها بقصصه الغرامية التى يجمعها من ألف ليلة وليلة وغيرها من الكتب يقرؤها عليها فى الجنان فأثار مكامن اللذة فى نفسها وفى الصيف يخرج مع النسوة الى البحر يصاحب شيخا لحراستهن وفى احدى تلك الليالى يمد سالم يده وهى واقفة بجانبه ويلمس منها أماكن حساسة تثير فيها اللذة فتبقى مأخوذة لا تبتعد وتقضى ليلتها تفكر فى تلك الاحاسيس التى لم تعرفها من قبل ثم تتوطد العلاقة بينهما وتغرم به فيضاجعها ويفتض بكارتها ثم يروم الزواج منها فترفض أمه عندها ينخرط فى الجيش الفرنسى ويترك القرية . وتكتم « عائشه » سرها وتنطوى على نفسها لا تبوح به لاحد وتواصل حياتها فى القرية الى أن تخطب الى احد أقارب أبيها وهو ضابط صغير فى الجيش الفرنسى وهو خالد . وتفرح أمها وأهل البيت ولا ترفضه هى فهى تشعر كأنها الشاة المسوقة الى الذبح فماذا سيكون مصيرها عندما يكتشف أنها مفتضة انها الفضيحة والكارثة ولكنها تتركهم يفعلون بها ما يشاءون من حمام وحناء وغيرها من ضروب التهيئة للعرس وهى فى حزن واستسلام ويحمل الزوج الهدايا وتزف العروس الى زوجها ولكنه يمهلها ثلاثة أيام فيخالف بذلك تقاليد قريته ولكن بعد ثلاثة أيام يكتشف انها غير عذراء وتعترف له بان الذى فعل بها ذلك سالم ابن زوجة أبيها . فيتألم الزوج لذلك ويجتمع بأبيها ويعلمه بأمر ابنته ويقرر العودة الى الثكنة وهناك يبحث عن سالم حتى يجده فيشبعه ضربا ويتوسط لارساله الى الفيتنام فيموت هناك . أما الزوج فيصاب بشلل ويضطرب لسانه وتبقى « عائشه » بجانبه تداويه ولكنه يموت وتصاب بمرض عصبى فتحمل الى تونس وتداوى من علتها ثم تعود الى بيت أبيها وتبقى هناك الى أن يخطبها عجوز فى السبعين وهو المكنز فتوافق على الزواج منه وتنتقل الى بيت العجوز ولكن لهذا الشيخ ابن أخ هو

الازهر يعطف عليها ويشفق على حالها فيـأتى لمحادثتهـا وتسليتهـا وينقلب العطف والاشفاق الى علاقة جنسية ويغدو عشيقا لها تعطيه كل جسدها بينما زوجها منغمس فى لعب الورق بأنواعه . ولكن الازهر يعترف لها بأنه متألم لانها مارست معه الجنس وهى زوجة عمه وانه نادم لانه نال منها ما نال منذ سنـوات .

« اعلمي يا حبيبتى أنى اليوم أشد أسى وحزنا وكآبة مما كنت رغم أنى ظفرت بحبك وأكثر من ذلك بجسدك ولكنى أكون أسعـد وأكثـر شعـورا بالكرامة والمروءة لو صدمتنى وصددتنى عنك واحتقرتنى » (6) .

فجابته : « انا لم اعد الا جسدا فقط لقد قتلوا فى كل احساس بالكـرامة والمروءة فأنا لا أكذبك عندما أقول لك أنى غير قادرة على أن أحبـك وهـل علمنى هذا المجتمع الحب ، انه لم يعلمنى الا السفـالة واللـؤم والجـرى وراء الشهـوات » (7) .

وفى احدى الليالى الخريفية بعد أن مارست الجنس مع الازهـر فى البستان نسيت شملتها ولما ارادت العودة لاخذها سمعت صراخا فجرت وأهل البيت الى مكان الصوت فوجدت الجمل قد عض الازهر فى يده اليمنى بينما كان حاملا للشملة بيده اليسرى وقطعت يد الازهر وأصيبت « عائشة » من ليلتها بمرض صدرى توفيت على أثره ودفنت هى وابنة أختها فى قبر واحد .

رأينا فى الحوار الذى دار بينها وبين الازهر أنها تحمل المجتمع ما وصلت اليه من انحدار أخلاقى وانغماس فى الرذيلة وكان المؤلف يحمل المجتمع ذلك كما رأيناه يفعل ذلك مع عادل .

ورأينا ان الشخصيات وإن اختلفـت ملامحهـا الا أن هنـاك صفـة مشتركـة بينها جميعا وهو هذا الانغماس فى الجنس وإن حاول المؤلف أن يحمل المجتمع تبعه . ذلك الا أننا لم نفهم كيف ولم نجد تعليلا لذلك وشخصياته لا تثير قضايا ولا تعالج مشاكل اجتماعية وهى كلها نماذج انسانية زائفة الا شخصية عادلفهى نموذج بشرى بحق يمثل طبقة البرجوازية المنحلة .

---

(6) « عائشه » ــ ص 168 .

(7) نفس المرجع ــ ص 168 ــ 169 .

وكما يقول الدكتور محمد يوسف نجم حول الشخوص : « الشخصيات الانسانية (الافراد) والنماذج البشرية فالشخصيات الانسانية لها مشخصاتها الدقيقة وخصائصها المميزة وقسماتها الفارقة وبهذا تختلف عن سواها من الشخصيات . أما النماذج البشرية فهى تجسيم مثالى لسجية من السجايا أو لنقيصة من النقائص أو لطبقة أو لمجوعة خاصة من الناس وهو يحتوى جميع صفاتها وخصائصها الاساسية » (8) .

واعجابنا أو عدم اعجابنا براوية الاستاذ البشير بن سلامه أو غيره تعود أساسا الى ما تدور حولها من أفكار ومدى نجاحها فى تصوير الواقع الذى نحب أن يكون الكاتب صادقا أمينا فى نقله .

ونحن معجبون بروايته ولكن الاعجاب لا يتأتى من نقل الواقع فقط فهناك النواحى الفنية التى قد ينجح الكاتب فى حبكها وقد يخفق فى هذه الناحية الفنية . والواقع الذى نطمح فى أن يرسمه الكاتب ليس هو الواقع المعاش بل هو الواقع الفنى وصورته الفنية الخاصة .

وقد كان الروائى البشير بن سلامه ناجحا فنيا أكثر مما هو ناجح واقعيا رغم النزعة الواقعية المتغلبة عليه والتى دفعته الى بعض المبالغات وقد تعرضت فى هذه الدراسة الى أهم شخصياته التى تقوم عليها الرواية وتدور حولها وكما قلت فى أول هذه الدراسة فان الكاتب لم يكن يعنى بالناحية التحليلية النفسية لشخصياته انما كان يرسمها من الخارج ويروى كل شىء عنها .

وهناك ناحية مهمة فى رواية « عائشه » وهى لغتها وهى تحتاج الى دراسة منفردة اذ يتميز الكاتب بلغة خاصة تختلف كليا عن معاصريه من كتاب الرواية وان شابهت طريقة البشير خريف فى لغته ويكفى دليلا على طرافة هذه اللغة أن الكاتب جعل فى نهايتها فهرسا للالفاظ الواردة فيها باللهجة التونسية . وللغة القصة أو الرواية أهمية كبرى اذ بواسطتها يرسم لنا الكاتب ما يريد إبلاغه .

محسن بن ضياف

---

(8) الدكتور محمد يوسف نجم ـ فن القصة ـ ص 105 ـ دار بيروت للطباعة والنشر .

دُعَـاءُ الخُـلُود

شعر : علي الشملي

قُمْ وَطوّقْ جِيدَ من تهوَى قليلاَ   واستَرِحْ فِي حضْنِ من أحببتَ حِينا
رُبمَا نَبْقى مَعَ النَّجوَى طَوِيلاَ   غَير أنّ الدّهْرَ لاَ يَعْرِفُ دِينا

قَبلنَا الأكْوانُ حَنَّتْ للْجَمَالِ   طَوّقَتْ فِي عشقِهَا حسنَ الوُجودْ
وَبكتْ شوْقا، ومن سُهْدِ اللّيالِي   سافرَتْ عبرَ الرّؤى نحوَ الخُلُودْ

كُلّ ما فِي الكوْنِ منْ خَيرٍ ونورْ   لك يشدُو – يا أخِي – عبْرَ العُصُورْ
وَستبْقَى سائِرًا بيْنَ الدّهُورْ   فِي صُمودٍ ليس تثنيك الصّخُورْ

قُمْ وَسبّحْ إنّما التّسبيحُ رَاحَهْ   وَشرُودُ الرّاهِبِ الممحُونِ متعَهْ
لَيسَ مثلُ الصّمتِ عمقا وفصَاحهْ   هَكذَا لا تَنْحَنِي فِي اللّيلِ شمعَهْ

إنّنِي أدعُوكَ للأفْرَاحِ حُبّا   يَا أَخِي فالنّارُ تخبُو بعدَ حِينْ
وَرِيَاحُ اليأسِ لاَ تَقهَرُ شَعْباً   صَامِدًا مَابَيْنَ أموَاجِ السِّنِينْ

عشْ برَغمِ الظُّلمِ شهماً لاتُساومْ   سرْ على آثارِ أجْدَادٍ كِرَامْ
واتّبِعْ دَرْبا سوِيّا ثُمّ قَاوِمْ   لا تخَفْ منْ بَذْرَةِ الشّرّ الحَرَامْ

سَبِّح اسْمَ اللهِ واذْكُرْهُ طَوِيلا   كلّ ذِكرٍ فِيهِ للانسَانِ رَاحَهْ
فَإذَا مَا حدثَ مُصْطرّ قَلِيلاَ   فُزْتَ بالغُفرَانِ فِي يوْمِ الصّرَاحَه

محمد المرزوقي القصاص

بقلم : نور الدين بن بلقاسم

القصة عند محمد المرزوقي لا تتقيد بفنيات معينة أو طريقة مرسومة : بل هي عنده حديث يساق على الطبيعة ، وهذا الحديث يحاول كاتبه أن يجعله في قالب القصة ، أو هو قصة يسعى كاتبها الى أن تكون في قالب حديث.

والبيئات التي تدور فيها أحداث هذه الاقاصيص مختلفة . فهي تدور في مجالين :

أ) ـ المجال الصحراوي الريفي :

وفي هذه البيئة قضى الكاتب صباه ، فمن محيطها وشيوخها وعجائزها روى تلك الاقاصيص أو الاحاديث ، كما أراد الكاتب نفسه أن يسميها (1) .

ب) مجال المجتمع المدني :

وفي هذا المجال يصور الكاتب في جملة من أقاصيصه العمال في المعامل ، والافراد في العائلات ، والعائلات في الاحياء ، ومظاهر التفسخ الاجتماعي ؛ وهو أثناء ذلك يصور فترة من حياته عاشها في العاصمة تونس ، عندما كبر وأدرك (2) .

ومثلما اختلف الاطار المكاني في هذه الاقاصيص اختلفت مضامينها . فهناك مضامين استوحاها الكاتب من حياته مع الناس ، واختلاطه بهم ،

---

(1) محمد المرزوقي ـ أحاديث السمر : 5 ـ طبع الدار التونسية للنشر ـ سنة 1973 م.

(2) نفس المرجع ص 6 .

وممارسته اياهم ، وتجربته معهم ، مثل قصة (المجنــون) (3) التى تعالــج عقوق الاقارب ونكرانهم للجميل . ومثل قصة (الصيف ضيعت اللبن) (4) التى تعالج موضوع زواج الشيوخ بالفتيات الصغيرات ، وما ينتج عن ذلــك من خلافات وطلاق وتيتم للابناء .

وهناك نوع ثان من المضامين استوحاه الكــاتب من القضايــا الاجتمــاعية والسياسية العربية العامة . مثال ذلك قصة (الــدرويش) (5) التى تــدور أحداثها بين السلوم والاراضى البرقاوية ، ابان الحرب بين جيــوش الحلفــاء وجيوش المحور ، وما كان لهذا الدرويش من دور فى الجوسسة لفائدة الحلفاء .

والقسم الثالث من المضامين هو عبارة عن آراء خاصة بالكاتب ، كان مؤمنا بنصيب منها ، وتحولت عقيدته عن جزء آخر ، عندما أثبت تواصل تجربته فى الحياة أن بعض ما آمن به غير صحيح .

فى أقاصيص الاستاذ المرزوقى يتصف الابطال بعدة صفات منها :

① ــ التــردد بيــن الخيــر والشــر :

ففى قصة (ملائكة الرحمة) (6) يستغل صاحب المعمل العامل عبد الستار فلا يستطيع هذا إعالة ابنه وزوجته ؛ ويموت العامل بمرض السل والقهر ، وتمرض زوجته بنفس المرض ، وتلحق به بعد مدة وجيزة ، ويتشرد ابنهمــا الوحيد مع القطط وأبناء الليل ، وقرر هذا الابن ــ عندما شب ــ أن ينتقم من صاحب المعمل الذى اعتبره قاتل أبيه ، وفى اللحظة التى كان داخلا فيها الى قصره شاهرا خنجره وقاصدا مرقد الرجل ، بكى الولد الرضيع الوحيد الذى أنجبه صاحب المعمل بعد انتظار طويــل ، فاستيقظ الاب وقفــز من سريــره لاسكاته ، فسقط الخنجر من يد الشاب ابن عبد الستار ، وبدأت فكرة الانتقام تتلاشى من ذهنه وتذوب ، فقد أحس حينئذ أن فى بكاء الطفــل صوتا ملآئكيا يمنعه عن القتل ، ورأى أنه لو قتل هذا الاب لتشرد هذا الطفل مثل تشرده عندما لم يجد من يعوله .

---

(3) محمد المرزوقى ــ عرقــوب الخيــر : 30 ــ نشر المكتبة الشرقية ــ تونس 1375 هـ . / 1975 م .
(4) محمد المرزوقى ــ أحــاديث السمــر : 63 .
(5) محمد المرزوقى ــ أحــاديث السمــر : 30 .
(6) نفســه : 6 .

ويعرف صاحب المعمل الحقيقة فينصف عبد الستار فى شخص ابنه .

وفى قصة (الله أكبر) (7) يرغب حامد فى الزواج بابنة عمه ، ولكنه كان متصعلكا وغير مستقيم فى سيرته ، ولذلك يطرده عمه شر طردة . وفى ليلة عزم على قتل عمه انتقاما منه لانه أهانه ، فتسلل فى الليل الى بيته متسلحا بخنجر ، وفى اللحظة التى رفع فيها يده ليغرس الخنجر فى صدر عمه ، ارتفع صوت المؤذن من الصومعة القريبة يردد (الله أكبر) ، فاضطربت يد حامد ، وسقط الخنجر من يده ، وتراجع الى الباب ، وخرج ، فتوضأ وصلى ، واعتذر لعمه عما تقدم منه ، وقدم لعمه الوضوء للصلاة ، فجازاه على توبته بأن زوجه بأبنته التى رغب فيها .

فضمائر هؤلاء الابطال كثيرا ما تصحو عندما تتأزم الاحداث فى القصة ، وصحوة الضمير — عندهم — هى التى توقف تيار الشر الذى ينقادون معه ، أو أن هذه الصحوة تجعلهم أحيانا يكفرون عن الشر الذى اقترفوه ، بفعل خير مضاد للفعل الاول .

فسليمان البرنى فى قصة (الضمير) (8) اعترف أمام المحكمة بأنه هو قاتل حامد بن صالح منافسه على حب الفتاة نجمة التى أراد الزواج بها . وبهذا الاعتراف أطلق سراح حسن الذى ألصقت به تهمة القتل ، فى الوقت الذى كانت فيه المحكمة تستعد — قبل اعتراف البرنى — لاعلان الحكم باعدامه.

وكذلك فعلت بطلة قصة (ضمير يستيقظ) (9) . فهى راقصة استلبت قلب موظف كبير وأبعدته عن أطفاله بعد أن سلبت ماله ، وأكثرت من ديونه ، وتسببت فى طرده من الوظيفة وادخاله الى السجن . كفرت هذه عما فعلته باخراج الرجل من السجن ، ومداواته من المرض الذى ألم به ، وإعطاء ثروتها لاولاده .

② — يؤمن هؤلاء الابطال بالبخت والسعد :

فالعم سليم الذى كان يعيش فى الصحراء مع زوجته حليمة ، اعتقد بأن الصبي الذى التقطه من أحد الاودية — بعد أن نهشته أفعى — هو السبب فى رغد العيش الذى بدأ يتهاطل عليه منذ أن حل هذا الصبي ببيته .

---

(7) نفسه : 30 .
(8) محمدالمرزوقى — أحاديث السمر : 53 — 60 .
(9) نفسه : 123 .

فبعد أن كان العم سليم لا يجد ما يقتات به مع زوجته صار يمتلك أغناما وابلا فى الصحراء ، ومزارع ومتاجر فى القرية ، ولذلك أطلق على هذا الصبي اسم (عرقوب الخير) ، وتبناه لانه كان لا ينجب الولد ، وزوجه (بـريم) ، وأورثه أرزاقه (10) .

③ ـ يلازم الحزن واليأس والسلوك الغريب بعض هؤلاء الابطال :

ففى قصة (صاحب المغارة) (11) عمد بطلها سالم ـ بدافع الحزن واليأس ـ الى سجن نفسه فى مغارة ستين عاما ، لانه لم يستطع أن يتزوج بالفتاة التى يحبها وتحبه بدعوى انه فقير من ناحية ، ولانه قتل ابراهيم الرحـال صاحب المال وغريمه فى حب هذه المرأة من ناحية أخرى .

وأضرب صالح بطل قصة (بين زوجتين) (12) عن الزواج لانه فشل فيه مرتين ، ففى المرة الاولى تزوج بامرأة متخلفة ذهنيا تهوى الاكسية والالبسـة والزيارات المتعددة ، منها زيارة المقابر والزوايـا ، وفى المـرة الثانيـة تـزوج بامرأة تلقت ثقافة لا بأس بها من المدارس الابتدائية والثـانوية ، ولكن هذه المرأة كانت ترى فى واجبات الزوجية قيدا لحريتها ، وكانت ترى أن الشرف من التقاليد البالية ، وآل الامر بها الى الطلاق . وأضرب صالـح عن الـزواج نهائيـا .

والواقع ان الكاتب برصده لمثل هذه المواضيع يرسم ما طرأ على المجتمـع التونسى ابان الخمسينات من اختلال فى التوازن الاسرى نتيجة التحول فى العقلية والسلوك وانماط العيش عند بعض الفئات ؛ ونتيجة المحـافظة التى تمسكت بها بعض الفئات الاخرى .

وهو أيضا يصور التفسخ الاجتماعى الذى نتج عن هذا التحول مثلما هــو الحال فى قصة (واخجلى !) (13) . فبطلها شاب كان يمنى نفسه بليلةعمرية مع الخادمة ، التى كانت تتمنع رغم الحاحه فى المراودة ؛ وفى الليلة التى قرر أن يقوم فيها بالمغامرة بعد منتصف الليل ، وجد أمه بانتظاره ، فتلقى منهـا الصفع والتقريع ، فكان ذلك سببا فى التزامه بالاستقامة بعد ذلك .

---

(10) محمد المرزوقى ـ عرقـوب الخيـر : 5 ـ 20 .

(11) نفســه : 75 .

(12) محمد المرزوقى ـ بيـن زوجتيـن ـ (سلسلة كتاب البعث) ـ ط 1 ـ ديسمبر 1957 م.

(13) محمد المرزوقى ـ أحـاديث السمـر : 109 .

وقد استعمل الكاتب عدة فنيات قصصية ليصور مثل هـذه المواضيـع ،

استعمل الوصف والحوار والسرد ؛ وقد تظافرت هذه العناصر على تحليل نفسيات الابطال ، وابراز الفعل ورد الفعل عندهم ، وكشف آلامهم وأحلامهم وانفعالاتهم الداخلية ، وحب بعضهم للثار ، مثلما هو الحال فى قصـة (ثـأر أبـى) (14) ، وتمسك بعضهم الآخر بالشهامة والفتوة العربية مثلما نجد ذلك فى قصة (متبوعة) (15) .

والقصة عند الاستاذ المرزوقى هـادفة غايتهـا كمـا يقـول فى مجمـوعته القصصية (فى سبيل الحرية) (16) : « تحريك الهمم وبعث النخوة والحماس فى نفوس الشباب الوطنى العربى المسلم » ؛ ولعل هذا ما جعله يتدخل فى شؤون أبطاله أثناء سياق القصة وهو ما يعتبر خللا فى الفن القصصى .

فالكاتب يعمد الى أن ينطق أبطاله أثناء الحوار بما فى أعماقه هـو ، لا بما فى أعماقهم ، فيعبرون عن رأيه فى شؤون المجتمـع والحيـاة دون تـورية أو حجاب . مثال ذلك ما نجده فى قصـة (تجـربة قاسيـة) (17) التى تعالـج موضوع الخيانة الزوجية ، ففى هذه القصة آراء خاصة بالكاتب لا يحـاول أن يبديها من وراء الابطال بطريقة هادئة وخفية ، بحيث لا تكـون هذه الافكـار ناتئة وشاذة عن السياق فى النص .

من ذلك انه يرى : أن الذين يسميهم الناس بالمتزمتين هم ناس عقلاء يقفون بالاشياء عند حدودها العقلية ، لان كل شيء فى هذه الحياة له حـدود يقـف عندها ، وهذه الحدود يعرفها العقل السليم البعيد عن المؤثرات العـاطفية . وهو يرى كذلك ـ فى هذه القصة ـ أن الحياة تصير فوضى اذا تركت سنـن الطبيعة دون حدود ، لان فى ذلك الوقت يختل التوازن الاجتماعى الذى هـو أساس العمران ، ومهمة الانسان العاقل هى القيام بهذه المأمورية التى يرتكز عليها التوازن الاجتماعى ، ولا يكون ذلك الا بالاعتراف بأحكام العقل ، والحد من حرية النفس فى تصرفها ، وأن لكل انسان حريته الفردية ، ولكـن هذه

---

(14) محمد المرزوقى ـ أحـاديث السمـر : 61 .
(15) محمد المرزوقى ـ عرقـوب الخيـر : 48 .
(16) محمد المرزوقى ـ فـى سبيـل الحـرية ـ منشورات مكتبة النجـاح ـ تونس 1956 م.
(17) محمد المرزوقى ـ أحـاديث السمـر : 30 .

الحرية محدودة بحرية الغير ، واذا لم نقل بهذه الحدود في الحياة ، فاننا نكون قد كفرنا بنعمة العقل ، وخرجنا عن سلطانه ، وانتسبنا لفصلية الحيوان البكماء (18) .

ومثل هذا التدخل نجده في قصة (لا أمل بعد الثالثة) (19) .

فبطل هذه القصة فشل للمرة الثالثة في الزواج ، فتخلى عنه نهائيا برغم ثرائه ، وذلك هروبا من شروط الزواج الكثيرة التي تقلقه من ناحية ، وطلبا للحرية الشخصية من ناحية أخرى ، فينصح الراوي ـ وهو الكاتب نفسه ـ هذا البطل ـ بطريقة مباشرة قائلا :

« ليست حرية الرجل في فراره من الواجبات بصبر وجلد ، وأن الفرق بين الرجل الكامل والرجل الناقص ، يتمثل في القيام بمسؤوليات الحياة ، ولو سلك الناس طريقك لانحل العقد الاجتماعي ، وانفرطت خرزاته ، وتعطل عمران الكون » (20) .

فهذا الكلام جميل ورائع لو كان مندرجا في بحث علمي ، أما أن يدرجه كاتب في قصة ، فان الفن القصصي يتطلب منه أن يدرجه في نطاق السرد ، ليستطيع بذلك أن يدير أبطاله من وراء ستار ، فلا يحد من حريتهم ـ في الحركة ـ بتدخله في السياق ، ولا يرفض عليهم مثله بطريقة مكشوفة ، وإنما فن القصة يلزم الكاتب بأن يوجه أبطاله من بعيد ، ليحملوا الى جمهور القراء تصوراته وأحلامه ، وموقفه من الوضع البشري ، ومثاله للواقع الاجتماعي الممكن الوجود .

فالمرزوقي القصاص يمكن ادراجه بين قصاصي الاربعينات مثل عبد الرزاق كرباكة ، ومصطفى خريف ، ومحمد العريبي ، والاخوين باكير وغيرهم .. هؤلاء الذين يرون أن القصة توجيه وتهذيب وخلق للانسان النموذجي القادر على بناء المجد العربي الطارف على أسس مجدنا التالد .

نور الدين بن بلقاسم

---

(18) محمد المرزوقي ـ أحاديث السمر : 183 .
(19) محمد المرزوقي ـ أحاديث السمر : 163 .
(20) نفسه : 168 .

أنتِ مُعذبتي هـاجس لا يلين

شعر: محمد الأمين الشريف

حدس اخضرُ ..
يقتفي نصبَ عيني
ولا ينتفي أبداً
كالدّم المترقرق طوعا ،
برافدِ عمري .
كوعدٍ عنودٍ ،
يظل يراوحُ في خلدي بارتياب
وكالرغبة المشتهاةِ ..
يلحّ عليَ
ويُلغي ابتسامي
ويُضحي اهتمامي
ويجتاحُ فكري
يلقنُ مُستلزمات الهوى
ويأمر بالبدءِ بالإنتقالْ
ويدفع يا حب للأفق الوصل .
يومىء بالوحدة المرتجاة
يبشر بالفتح في غير شك
ويوعد — ياوعد — بالأمة الحلم
أنتِ معذبتي / هاجس لا يلين

بلى ! أمل أنتِ لا يستكينْ
شذا يتصاعد من رئتي
نحو أنفي
يلازمني كالهوى
ومثل الهوى — الطفل
يشحذُ نسغي
ويشجبُ عقلي
وأنت سنى يتلألأ من كل وجه
سحيق
يشكّلُ لي هالةً من حنينْ
يطعمها رسمك السرمدي
فتبدو لعيني ..
جنّاتُ زَهْوٍ
وضيعاتُ عطر ..
قصوراً من اللهو واللغو
والفرح المستتبّ
وأندلسا من ضياء
خليجا من اللؤلؤ المنتقى
أطلس اللازورد

ونحن بنو العرب طيرٌ
تنافسها الحور في شدوها
تَتَدَلَّهُ بين انسياب وعشق
وتصحو خيولي
على جرس الواقع المرّ
تبصرُ سيدتي هاهنا وهناكَ
تفاجئُها الصُّبْحيّاتُ المطيرة ..
حقدُ العواصف ..
سخط الرعود ..
وأفنانُ تلك الدوالي الخليعة
تُدْبِرُ واجمةً
كقتامة كل الفصول الحزينة ..
لا نفحةً .. للخزامى هنا
وللشيح والزعتر البربري
ومثل الجياد الغريبة
تنتابها دهشةُ الحائرينْ
فتقبعُ في ذاتها مللا
ثم تقسم أن لا تعودَ
وأن لا تجيءَ
إلى حد يوم ضروس
تفاجيء فيه القطا نائما
وتضربُ فيه الأفاعي الحقودَهْ
تقلم فيه نيوبَ الذئابِ
وتجهض فيه القوافي الشبيهةْ

ويأخذني من سباتي الصهيلْ
فأفتح عيني
على نصب أقدارك الغافيهْ
يطالعني حظك العاثر المكتوي في الحشا
لا أرى أي شيء يضاحكني في الأفق
غير دمى من مطاط
هياكل آليةَ الصنع
تحملُ طوعا توابيتها دون أي انزعاج
تعلمت الصمتَ ...
أضحتْ تمارسهُ
كيف صارت تماريه في صمته ؟ !
نزولا لرغبة أوثانها الجائره
ومن أجل أن تتمعش بالغش
باعتْ هويتها
وأضاعتْ أصالتها
وارتضتْ بالمجون المقنع
بالغيِّ قهرا
تديَّن أزلامها بالنفاق الهجين
تخلتْ عن الشرف القدسي
واثرتِ الالتوءات والإختلاس البغيض
وراحتْ تكرس أغراضها الحاقدة
لتصفية النفس العربي

وصلبِ أجنةِ ثورتنا البطله°
* * *
أيا وطني / قد تلوث جرحي
بما لا أريد .
تعفن بالإختلاط وبالمسخ نسغي ..
فصرتُ هجينا
تحاصرني نزعات القبيلة طورا
وطورا تباغتني فرنكفونيتي المارجه°
* * *
أيا وطني
عربي أنا
عيبه أنه عربي
أنا عربي لحد الوريد
أنا عربي وقدْ أرْهقته العروبةُ
ها تتقاذفه الفزَعَاتُ المغيرةُ
يلهثُ خلفه فوج جرادْ
عليه تراهنُ كل الكلاب
ومثل القنافذِ
أنى توجه
توا تشم فحولته الطازجه°
وتوا تجيءُ
تصادرُ فيه التنفس
تحجبُ عنه الضياءَ
فيذوي رويدًا .. رويدًا ..
وينأى باحدى المجاهلْ ،
وفي قلبه صرخة غاضبه°
وفي فكره مهلة قائمه° .
* * *
أيا وطني يا حبيبي
برغْم الضبابْ
أنا اتشوفُ مثل حذام
واستشرفُ القادم المتخفي وراء الغمام
انا من خلال السنا المتوهج عبر دمائي
ومن حدسي المتموج عبر حواسي
اراكَ تمزق حوراءك المرمرية
تقطع جنح الأذى المترصد في كل آن
وتقفو كصرح سميق بوجه الزمان
تعيدُ إلي الذاكره
صفحات غوال
وتبني لآتٍ
بدا نورُه حاضرًا في العيانْ .

محمد الأميـن الشريف

الموسم الأخضر

قصة : زكية عبد القادر

ما أبهاها وأسناها !

ما أروع قلبها الخفاق يتدفق منه الحزم والعزم !

انها ولاية الساحل التونسى عندما يأتى الشتاء .

الحفل فى الولاية قائم فى كل حى وفى كل دار ؛ انها **الفـرحة الهاتفـة** باستقبال **الموسم** الاخضر ، موعد جنى الزيتون ، اللؤلؤ الاسود ، **الدر المسكى**، **ثمرة الشجرة** المباركة .

هى ذى مدينة سوسة ، جوهرة الساحل التونسى ، **تفتح ذراعيها لاحتضان** الموسم الشعبى التليد . لكأنها على موعد فى الصيف **والشتاء مع اللؤلؤ** ، **والدر** ، **والجمان** .

هى فى الصيف جوهرة ترفل فى بدلة البحر احتفاء بمهرجان «أوسـو» الأسطورى الظريف الطريف ، حتى اذا قدم الشتاء ، رأيت أهلها متلفعيـن فى ثيابهم الصوفية . فالرجال « جماعة الزيتون » ببرانسهم الدكنـاء الدافئـة ، والنساء « لقاطة الزيتون » بملاءاتهن الحمراء الزاهية .

أما «الجماعة» ، فرجال صناديد ، مفتولة سواعدهم ، يجنون الزيتون فى الموسم الاخضر ثم يملؤون به الاكياس .

وأما «اللقاطة» ، فهن نساء ماهرات فى التقاط الحب المتناثر قلة أو كثرة على وجه الارض فى غابة الزيتون .

والقرى المجاورة لمدينة سوسة تهتف هى أيضا بالموسم الاخضر فى حبور فياض وفرحة شعب نابعة من الاعماق . كيف لا ! أليست الزيتونة من دعائم

اقتصاد البلاد ؟ • أليست تونس الخضراء ، موطن الارض الكريمة ، بلاد الزياتين منذ فجر التاريخ ؟• فلعل زيتونة أصيلة فلسطين الخالدة ، قد أزمعت فى سالف العصر وقديم الزمان على القيام برحلة تستكشف فيها أسرار البلدان ، حتى اذا أعياها طول السفر ، وقد بلغت شواطئنا يعلو محياها حياء وخفر ، طاب لها المقام فى هذه الاوطان ، وفى دخيلتها حنين الى تلك الديار •

الموسم على أشده فى قرية «الساحلين» • انها تتراءى للقادم اليها من بعيد ، ببيوتها البيضاء المنخفضة السقوف ، حول مئذنة قد انبثقت متصاعدة الى السماء • سكان «الساحلين» أهل الفكاهة والمرح ، يتطلعون اليك والى كل غاد ورائح بنظرات فاحصة ، فيها براءة يزاوجها حب الاستطلاع •

وترتاح نفسك الحالمة الى قرية «الساحلين» البيضاء ، الوديعة ، يكتنفها الهدوء ، وتعطر أرجاءها رائحة الحفاظ على الحياة القروية التقليدية المتسمة بالنقاوة ، والبساطة الاصيلة •

وتلك سيارة من نوع «تراكسيون» ، كالابنوس لونها ، تلوح من بعيد وهى تسعى متثاقلة وسط أزقة القرية الضيقة كأنها سلحفاة •

الاطفال فى القرية يهرعون أفواجا الى «التركسيون» فيحيطون بها من كل جانب وهم يرفعون أصواتهم متغنين «بصابة» الزيتون فى هذا العام :

« 1960 ، عامنا ان شاء الله عام خير ، 1960 ، عامنا ان شاء الله عام صابة » .

ان الاطفال فى ضجيجهم وعجيجهم صورة من الحياة ، بل قل انها الحياة عينها ، رسمتها يد الفنان الاعظم ، ذى الجمال والكمال ، فظللتها بأفنان من الرقة والطهر ، ومن البراءة والصدق ، ومن العذوبة التى لا حد لها ايضا •

الطفل كائن صغير ، ضعيف البنية ، رقيق الشعور ، سهل العطب . فكأنه فى رقته نسيم السحر فى ليالى الصيف الثقيلة ، وكأنه فى لينه برعم الياسمين لا يكاد يزهر حتى يذوى •

الطفل وديعة ، عزيزة ثمينة وضعها الله بين يدى الانسان ، يحفظها ويرعاها ويشد أزرها حتى تبلغ مناها •

الطفل شعاع نورانى ، مستفاد من عالم علوى •

الطفل ضمير الكون اليقظ ، ونبضة القلب الانسانى الوقاد ، وبسمة الروح التائهة فى وادى الضياع ٠

الطفل ملاك السماء فى الارض ٠ انه الانسان يعيد نفسه ٠ فهو أنا ، وهو أنت ، وهو لعمرى البشرية قاطبة ٠ ألاليت زياتين الارض مجتمعة تدعو الله ليحفظ الاطفال المشردين منهم والمعذبين !

فى السيارة الآبنوسية اللون ، التى وفدت على قرية «الساحلين» ، حشرت أسرة الحاج محمود القرطبى القادمة من مدينة سوسة ٠ «التراكسيون» تتوقف قدام دار بابها ضخم ، عتيق ، قديم ينفتح منه باب صغير عند الدخول والخروج ٠

ينزل الحاج محمود من السيارة ويتوجه مهرولا الى «سى حميدة التراس جار الساس» وقد جاء لاستقباله . «آمنة» حفيدة الحاج محمود تقفز من «التراكسيون» ، وتنطلق كالرشا نحو البيت القروى ٠ الطفلة سعيدة بالعودة الى هذا المشتى بعد غيبة سنة طويلة ٠ انها ستلتقى فى حوشه الواسع بأكوام الزيتون العالية حيث ستتزحلق وتتمرغ ٠ وانها ستلتقى فيه بالحمار الادهم الذكى ، وبالاتان الرمادية الخدوم ، وبالديك والدجيجات ، وبالارانب والارينبات ، وبالمعزاة والجديان ، وبالكلبة والجراء .

آمنة فى غبطة لا يضاهيها اليوم أى شىء . انها تجرى ، انها تقفز ، انها تغنى :

« زيتون فى الاغصان زين الغابه احنا فرحنا كيف جات الصابه »

«زيتون ، غابة ، زيت ، صابة» : كلمات جميلة ، ساحرة ، صارت تردد فى كل مكان وينطق بها كل لسان .

ومن الغد ، يبدأ الحفل ببيت الحاج محمود والحاجة «نفيسة» ٠ يستيقظ أهل البيت مع انقشاع ظلمة الفجر الساحر على انغام صياح الديكة ٠ الحيوية تدب رويدا رويدا فى انحاء البيت . ابنتا الحاج محمود الوسطى والصغرى منصرفتان الى اعداد قهوة البن فى غلاية فخارية كبيرة البطن سرعان ما تنطلق منها رائحة فواحة منعشة . القهوة جاهزة ، والبنتان تقدمانها للقوم فى أقداح خزف من صنع نساء القرية ٠

الحاجة نفيسة و « أم السعد دادا العائلة » ، تطهوان الكسكسى الاسمر المسقى بالمرق ، وفيه كثير من اللفت ، والسبناخ ، والفول والفليفلة الحمراء اللاذعة ·

أقراص «الكفتة الشبتية» المصنوعة من خليط البيض ، والبقدونس والشبت يتصاعد نشيشها من المقلاة · ابنة الحاج محمود الكبرى تعجن الدقيق ، انه الآن بين أصابعها لجين ، وبعد حين لا يلبث ان تراه فطائر لونها كالذهب ·

ألوان من طعام فصل الشتاء لذيذة ، شهية ، يأخذها القوم الى غابة الزيتون لتكون لهم غداء ·

كانت آمنة تشعر بالغبطة ، وهى نشوى فى هذا اليوم · فهى بقلنسوتها الحمراء ، وبجوربيها الطويلين المرقعين ، وبمعطفها الصوفى الرث ، تعتقد أنها أجمل طفلة موجودة على وجه البسيطة ·

ولا يلبث وفد الجماعة أن يحل أمام بيت الحاج محمود يتقدمهم العم«مدانينه» وهو يسوق عربة يجرها بغل « أمين » . وما هى الا أن يفتح الباب الكبير،فيدخل القوم فناء الدار · العم «مدانينه» هو المقدم فى الوفد ؛ أطلق عليه هذا الاسم لانه يعزف على آلة موسيقية صنعها لنفسه ، شبيهة «بالمندولين» · أما العم «النقرى» ، و «ولد القعقاع» ، و «خميس الترتنو» ، و «ولد الام العكرى» ، و «ولد الام النيلة» ، فانهم التابعون ، شأنهم تلقى الاوامر والنواهى من العم «مدانينة» ·

يأتى الرجال وهم يترنمون بألحان شعبية ، ان لفى أصواتهم تنافرا ، وان لفيها خشونة ···

يا كرهبت الكار   جيب خالك فى مشوار
هاه هاه يا ولد عمى   كيف نراك يدور دمى
يا ولد عمى يا مغرور   علاش تقعد هكه محروم
ايجا اسمعنى على كلثوم   والله نغنى خير من أمى

وكالسهم تنطلق آمنة نحو العم «مدانينة» ، فيرفعها الرجل بيديه الخشنتين ، ويجلسها فى مقدمة العربة وهو يقول :

« مرحبا بهلال العيد   مرحبا بالزويتنه »

وما هي الا أن يسمع ضجيج أي ضجيج : انه فريق اللقاطة يصل الى دار الحاج محمود ·

هذه «ساسية» تتقدم الفريق وقد شدت صغيرها الى ظهرها ، وهذه هي «العانس» تهرول وتلوح الى «بنت بوحلوفه» بايماءاتها المألوفة ، وهذه «سعدونه» وفي رجليها نصف قبقاب ، وها هن «بنت الهامل» ، «والام كوكه»، و «البقه» و «الهقه» ، والام «قرنفله» يقبلن متهاديات يحملن اقفافهن الفارغة وعلبهن اللازمة للقاط الزيتون ·

كل المشاركين والمشاركات في الحفل قد حضروا ، وحان وقت توزيع الفطائر الطرية ، الساخنة ، المرقطة بالزبيب والمحلاة بالسكر الدقيق ·

وكانت آمنة الصغيرة تنتقل بين هؤلاء القادمين جميعا ، تذهب وتجيء محاولة مناداة كل واحد منهم باسمه · الا ان الاسماء تبدو صعبة النطق على لسان الطفلة · انها اسماء غريبة وعجيبة ، فكأن نفسية الناس المرحة في ولاية الساحل هي التي تدفعهم الى اتخاذها طريقا الى المداعبة والمزاح ·

أسرة الحاج محمود تتأهب الآن لمرافقة «الجماعة واللقاطة» الى غرس الزيتون الكائن في الطرف الآخر من القرية · الطريق طويلة ومكتظة بعربات «الجماعة» وعربات باعة التمر المجفف «الكنتيشه» ، والفول المطبوخ بالكمون·

ركب العم «مدانينة» يسير سيرا حثيثا نحو الغابة الخضراء · في الركب رجال ونساء يمشون بخطى ثابتة ، وبعزائم تنعشها رائحة الشيح والاكليل والزعتر ·

الحاجة «نفيسة» قد انتصبت على ظهر اتانها الرمادية الخدوم ، وهي تلوح بكلتا رجليها في الفضاء · الاتان تسير وأذناها متدليتان الى الارض ، حتى اذا أعيتها حمولتها رأيتها تنط وتشخر كأنها تطالب برفع هذين الزنبيلين عن ظهرها ، وقد احتويا على «عجان» الكسكسي ، وجفنة «الكفتة الشبتية»، وأقراص خبز «الطابونة» و «كوز الماء» ·

الام «سعدونة» في آخر الركب تتعثر بنصف قبقابها وهي لا تزال تأكل فطيرتها وتمسد على شعرها بالزيت المقلي مخاطبة نفسها بصوت مسموع :

« يا مرت الحاج محمود يعمر بيك الدار ويكثر عندك الصغار » · اعتقادا في أن كثرة الصغار علامة من علامات الخير ·

ويصل الركب الى غرس الزيتون الفسيح • انها عشرات الآلاف من الاشجار العملاقة ، الخضراء ، الوارفة الظل ، المتفرعة الغصن ، المغروسة فى غالب الاحيان غراسة هندسية محكمة •

ذوائب اغصان الزيتون تصافح الارض من ثقل زبرجدها الاسود اللماع • غرس الزيتون لوحة طبيعية رائعة ، يتجاوز مدى طولها وعرضها طاقة بؤبؤ العين •

هاهم الرجال يشرعون فى انزال معدات الجنى من العربة • السلالم او «الصرارف» أولا ، تليها الاكياس والبسط والفرش المصنوعة من منسوجات متينة ، وتسمى «الخيش» فى ولايات عديدة من البلاد •

صوت العم «مدانينه» يرتفع من بعيد مناديا :

« هيا بنا يا رجال ، أذكروا اسم الله وتوكلوا عليه » .

ويدوى اسم الله فى الفضاء الشاسع •

عندها ، يتجه العم «مدانينه» ووراءه صحبه الى زيتونة عريقة معمرة ، فكان عليها هالة من جلال ومهابة •

يقف العم «مدانينه» تحتها وقفة العاشق المتيم ، ويتمتم فى شبه وضوح : «تبارك الله أحسن الخالقين» •

ويعطيهم اشارة الانطلاق •

«من هنا نبدأ ، غنوا يا رجال ، زغردن يا نساء» • ويغنى الرجال ، وتزغرد النساء •

« يا زيتونه ، واش قربك للواد يا زيتونه
يـا موشمـه الواشمه عـلى الدغنـونه»

انطلق الموسم الاخضر بالحمد لله وبالغناء والزغاريد •

الزيتونة فى الساحل التونسى شجرة مباركة تحكى قصة العصور ، وتحكى كدح الانسان منذ قديم الدهور •

ان ذاكرتها قوية لا تفنى ، وان ماضيها بين يديها لا يتلاشى وان طال الزمن ! فهى تروى لك حكاية الاجيال ، وتصور لك دأبهم على انشاء الحياة

فى غمار النضال ! هى بذلك تخاطب الريح اذا هبت ، والشمس اذا اشرقت ، والقمر اذا اكتمل ، وحتى • النجم اذا افل •

ان خطابها تسبيح لله اذا قصف الرعد ، ولمع البرق ، ونزل المطر فبلعته الارض ليستحيل لها رحيقا غاذيا •••

الزيتونة فى الثرى صنو الثريا فى السماء ، كلتاهما تعظم الله وتسبح له بكرة واصيلا •

الرجال فرشوا حول جذع الزيتونة المسبحة باسم ربها فرشا وبسطا • السلالم منصوبة ، «والجماعة» يصعدونها مثنى ورباعى وقد وضعوا أصابع اليد اليمنى فى اقران اكباش مقوسة ، مستدقة الذبابة ، صقلت لتستخدم فى جنى الزيتون •

انك لتطرب لسماع دقات الاقران متجانسة ، متناغمة كأنها الصنوج تقرع الواحدة بالاخرى ، فيسمع لها ايقاع كأنه من الحان الموسيقى •

وتتساقط حبات المسك السوداء من الشجر كتساقط ندائف الثلج البيضاء من السماء •

آمنة تنط كالهريرة من تحت السلالم ، انها تسابق الحب المتهافت على رأسها ، وعلى يديها ، وعلى رجليها •

الجماعة فوق السلالم يجردون أفنان الغصون من حبـاتها ، ويجتـرون الحديث عن الصابة فى هذا العام ، وعن تسعيرة «القفيز» فى السوق ، وعن معصرة «خليفة الزيات» وما تصنعه من زيوت رفيعة • يخيل اليك وأنـت تنظر الى «الجماعة» انهم ابناء اسرة واحدة جبلوا على حب الزيتونة فاصبحوا بحبها اخوة متآزرين يشد بعضهم بعضا •

النساء منحنيات الى الارض كأنهن راكعات ، يلتقطن الزيتون حبة حبة • الام «قرنفلة» امراة كالليل بشرتها ، فارعة قامتها ، خفيفة حركتها ، رشيق خطوها ، مشهورة بما تأتيه من حركات بهلوانية • اذا بادرتها بحركة رقص رقصت واغرقت فى الرقص ، واذا بادرتها بتغضين وجهك انقبضت اساريـر وجهها وتجهم محياها • وقد تضحك احيانا حتى تستلقى • ولعل الام «قرنفلة» نموذج من نماذج نساء الفئات الشعبية فى الساحل العريق ، الذى لا تنفك الشجرة المباركة تحكى ايامه •

واذا اقبلت الام «قرنفلة» على العمل ، فلا رقص يلهيها ، ولا مزاح يغريها ولا ضحك ولا هزل . اذا قالت فهى لا تقول الا جدا ، واذا اقبلت على عملها فهى كالمتصوفة تنسى ما حولها ومن حولها ، لا ترى الا حبات الزيتون تلتقطها وترمى بها فى علبتها رميا سريعا رتيبا . والنساء من حولها لا يـكـرهـن حضورها ، ويرين انها قطب المجلس ، ولكنهن يغبطنها على خفة ظلها وحضور بديهتها ؛ ويغبطنها خاصة على مهارتها فى عملها . وانهن ليتبارين فى شتمها حذرات فى ذلك ، مستخفيات بكلامهن عنها ، هامسات قائلات : « انهــا امرأة يسكنها جن» ... «الطف يا لطيف ، علبة قرنفلة بلاعة ، كانها فم عبيثة» ... «الله يهدك يا قرنفلة ، كأن أصابعك مناقير الدجاج تأتى عـلى الاخـضـر واليابس» .

ولا يكاد الضحى يرتفع فى فصل الشتاء ساحبا وراءه خيــوط الشمـس العليلة العسجدية ، حتى يهزمه جيش الظهيرة . الزمن ينقضـى بسـرعة مذهلة فى غابتنا . البرد قارس والجوع قد أضنى القوم ، فاتجهت الاعين الى «عجان» الكسكسى .

وما هى الا ان ترى الرجال والنساء متحلقين ، جادين فى التهام الذريرات السمراء ، آخذين باليد اللقمة تلو اللقمة . يا له من كسكسى اسمر شهى تلتهمه الافواه طعاما سائغا كأنه يذوب فى الحلق قبل المضغ !

أما «الهقة» و «البقة» فانهما تلتهمان التهاما اقراص الكفتة ــ الشبتية مرفوقة بخبز الشعير . «البراد» فوق نار وقودها بقايا الاغصان والاعشاب يغنى «أغنية الشاى الاحمر وغناجينه» .

آمنة تتطلع بعنقها الى غرس الجيران حيث بائع الحلوى ينـادى متـرنما بحلواه قائلا :

«حلوى طرية ، لذيذة شهية ... تفاح يفوح ، يرد العقل والروح» .

يأتى الحلوانى الى آمنة فيناول الطفلة عودا طويلا غرست فى رأسه تفاحة حمراء غلفت بسائل سكرى دسم . التفاحة لذيذة وآمنة سعيدة سعيدة ..

يتوارى الحلوانى بعدما يسلمه الحاج محمود كيلا من الزيتون مقـابـل تفاحته .

المال لم يعد له أى شأن أيام موسم القطاف ، الشأن كل الشأن يؤول فى هذه الايام للثمرة السوداء ، حتى البضائع والسلع فانها تباع وتشترى فى

السوق بالزيتون . فلم يبق ، للفرنك أو للدورو قيمة فى عرف أهل القرية ، القيمة المطلقة هى لحفنة من الزيتون او لمكيال من المكاييل ملء زيتونا ٠

حب صادق ولد مع الازل وتوارثته الاجيال ذاك الذى يكنه القرويون للزيتون ومشتقاته ٠

لقد فرغ القوم الآن من طعام الغداء وعادوا «جماعة ولقاطة» الى الزيتونة يحدوهم نشاط وعزيمة اقوى ٠ الساعات تطوى من جديد طيا فى غرس الزيتون ، وخيوط الشمس الباهتة تبدأ فى التقلص نحو المغيب ٠ الساعة تؤذن بانهاء العمل وبالعودة الى الديار ٠

ينزل الرجال من فوق السلالم ، ثم يضعونها واحدا واحدا على متن العربة، ثم ينصرفون الى ملء الاكياس الفارغة زيتونا ، بينما تلتحق النسوة بالحاجة «نفيسة» القابعة عند جذع زيتونة ليقتسمن معها جبهن الملتقط ٠

الاقفاف مليئة بالزيتون ، والنساء جالسات القرفصاء وهن على استعداد لعملية القسمة . الصاع هنا هو المكيال ، والقسمة تكون بحساب حظ لصاحبة القفة ومثله للحاجة «نفيسة» ٠ قفة الام «كوكة» فيها ثقبة كبيرة يتسرب منها زيتون كثير . النساء ينظرن الى الثقبة ويضحكن خلسة . فكأنك تقرأ فى نظراتهن الماكرة الساخرة ذلك المثل السائر :

« اخدم يا تاعس لذاك الراقد الناعس » .

وتبدأ عملية قسمة الزيتون على اللقاطة ، فترى وجوها تتلألأ بالفرحة ، وتسمع ألسنة تتفجر بالثناء ٠ خير الله خير كثير ، وبذل العبد بذل جميل ٠ جود وسخاء ، مد وعطاء ، ذاك رمز الزيتونة ، ذاك رمز الثمرة التى رحيقها نور ودواء ٠

ركب «الجماعة» و «اللقاطة» يتأهب الآن لمغادرة الغابة ، أجسام مكدودة لكن القلوب نشوى والنفوس طيبة راضية ٠

ويمضى الركب السعيد فى طريق العودة الى الديار ، وهو ما يزال ماضيا بخطى حثيثة حينا ، بطيئة حينا آخر ، وسط جموع القوافل الغفيرة ، حتى تتراءى له القرية البيضاء كأنها الام تنتظر عودة الابناء ، متغنية بكدهم ، هاتفة بأن يبقى غصن الزيتون روحا وسلاما للعالمين ٠

زكية عبد القادر

دور الإعلام الأمني وأبعاده في مسيرة الأمة

بقلم : د. التهامي نقره

– 2 – (*)

مجـالات الاعلام الامنى :

فالاعلام الامنى يتمثل فى بث الشعور الصادق بالأمن ، وحسن التوجيه الى وسائله وطرقه ، حتى يحس الانسان بحق أنه : آمن على حياته ودينـه وعرضه وماله وعلى سائر حقوقه الأساسية ، دون تهيب من سطوة المعتدين وجور الجائرين وتلك هى **السعادة** التى تنشىء الحضارة ، وتشجع المواهب على **الابداع**، وليست مجرد شعور السلامة من أذى الناس ومكرهم كما يقول الشاعر :

وان امـرأ أمسى وأصبـح سالمـا   مـن الناس الا مـا جنى لسعيـد

والامن فى مفهومه العام يشمل الامن الفـردى والاجتماعى ، والامـن القومى ، والامن الدولى وكله ، وثيق الصلة بالاعلام تجهيزا وتقنية ، وتوجيها وتوعية ، وابلاغا وتاثيرا ، ولكل جانب من هذه الجوانب عناصر وموضوعـات ومحاور كما سنبين ذلك بايجاز .

فمما يندرج فى الأمن الفردى والجماعى حقوق الانسان ، دينيـة كانـت أم سياسية أم مدنية ، ولكن لا يكفى مجرد التحسيس بهذه الحقوق ، أو منحها

(*) انظر الفكر : العدد 5 – السنة 29 ، فيفرى 1984 .

من قبل السلطة ، بل الواجب أن يتعلم الناس أساليب ممارستها وطرق استعمالها ، حتى يكونوا أهلا لها . فعندما نطالب في حرارة وحماس بحرية الانسان ، فنحن نعلم أن البون شاسع بين الحرية والفوضى ، أو بين حرية العقل وحرية الشهوة ، وأن بازاء كل حق واجبا ، فلا نطالب بالحقوق ونهمل الواجبات ، وأن الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته يخضع للقوانين التي تضمن حقوق الغير وحرياته .

فمن نادى بالحرية سعى لها سعيها ، ومن دعا الى الايمان وفر له أسبابه ، ومن قاوم الالحاد اجتث جذوره .

وماذا ينفع الاسير أن تفك قيوده ، ثم تضع في طريقه الاشواك والعقبات ، فلا يقدر على تجاوزها ؟

وماذا ينفع السقيم أن تضع بين يديه مختلف الطعام ، وهو لا يستطيع الاكل؟ فلنحاسب أنفسنا حين نطالب بحقوق الانسان وحرياته ، هل أعددنا هذا الانسان لينتفع بحقوقه ؟

فالتحرر المادي يجب أن يسبقه تحرر نفسي يتخلص به المستعبدون من عبودية أهوائهم وشهواتهم ، لأن الحرية نتيجة منطقية لحركتين متعاونتين ، وهما :

— حركة التحرير التي هي نضال لانقاذ المستعبدين من ذل العبودية

— وحركة التحرر التي هي استعداد وتجاوب للانتفاع بآراء المنقذين وارشادهم .

فحين أعلنت الولايات المتحدة الامريكية عن تحرير عبيدها منذ ، عهد ليس بالبعيد كان العبد يضرب في الأرض سعيا في طلب الرزق ، فتضيق به الحياة ، ويفقد كل حيلة وأمل ، فيعود الى سيده ضارعا اليه أن يبقيه تحت سلطته ورقه كما كان ، لأنه لم يهيئه من قبل لهذه الحرية .

وهنالك ميادين أمنية أخرى ، لا تقل أهمية ، وهي مرتبطة بالاعلام ، كسلامة المرور من حوادث الطرقات ، وقد نظمت وزارة الاعلام بتونس في 20 أفريل 1982 ندوة وطنية للاعلام بخطورة هذه الحوادث التي كاد يفقد فيها الراكب والمترجل شعوره بالأمن نتيجة تفاقم أخطارها يوما بعد يوم .

والاحصائيات الرسمية تفيد أن نسبة الوفيات الناجمة عن حوادث الطرقات بتونس بلغت 17 فى المائة ، وهى نسبة مهولة اذا قيست مثلا بنسبة اليابان وألمانيا التى لم تبلغ 2 فى المائة مما جعل كثيرا من المستشفيات تشهد اليوم اكتظاظا ، حتى عجزت عن استيعاب كل الجرحى ، بالاضافة الى ما تقوم به ازاء المرضى العاديين . فعدد الجرحى بلغ 25 جريحا يوميا ، كما بلغ عدد قتلى الحوادث معدل ثلاثة فى كل يوم .

ومما جاء فى الخطاب الافتتاحى لوزير الاعلام : (العبرة ليست فى اعداد الدراسات الفنية ، ولا فى سن القوانين الزجرية فحسب ، وإنما العبرة فى كيفية تحسيس المواطن بهذه الآفة التى تنخر المجتمع ، وتهز كيانه) (2) .

وقد كان لهذه الحملة الاعلامية المنظمة أثرها الحميد فى التخفيف بنسبة ملحوظة من ضحايا حوادث الطرقات المفزعة .

وقد تنظم حملات اعلامية فى الميدان الصحى مثلا عند ظهور بعض الامراض الفتاكة كالاوبئة ، فتنبه الى وسائل الوقاية والرعاية الصحية والاجتماعية وطرق العلاج الخ .. وفى بلدان العالم الثالث ينبغى أن تكون من مهام الاعلام تعبئة الطاقات لبذل جهد مشترك يرفع من مستوى العيش ، وينهض بالانسان ، ويدفع إلى إنجاز مخططات التنمية التى يتوقف إنجازها على فهمها والاقتناع بضرورتها كعامل أساسى فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بحيث لا تقتصر مهام الاعلام على الأخبار والترفيه ، كما هو معروف ، بل تشمل فى الدرجة الأولى هذا الالتزام بتفكير مستقيم ، وشعور بالمسؤولية المشتركة ، وبالواجب الدينى والوطنى ، وبالضمير الحى اليقظ .

والحاجة متأكدة الى ميثاق شرف يضبط للصحافى العربى حقوقه وواجباته فى الوطن العربى ، فيلتزم باحترامه ، ويتقيد بمقتضياته ، فان أية خطة اعلامية عربية لابد لتنفيذها من توفر العناصر البشرية الملتزمة .

وأما الامن القومى فهو ما تتخذه الدولة أو مجموعة من الدول من اجراءات اقتصادية وسياسية ودفاعية للحفاظ على كيانها ومصالحها حاضرا ومستقبلا ، مع اعتبار التغيرات الدولية التى تدعو الى اعادة النظر والتقويم من وقت لآخر ،

(2) جريدة العمل التونسية : 21 افريل 1982 .

واعتبار أن مصادر نشاط الاعلام الأمنى كل لا يتجزا . ولا بدأن تكـون هـذه الاجراءات المتخذة فى حدود امكانات الدولة وطاقاتها ، إذ أن جمـوح الخيـال والمغالاة فى الآمال الطموحة التى لا تتجاوز الامكانـات المتاحة قـد تقـود إلى الهزيمـة (3) .

فالامن القومى الذى يقصد به تأمين مجموعة دول من الاخطار التى تهددها داخليا أو خارجيا ، وتامين مصالحها ، وتهيئة الظروف الملائمة لتحقيق أهدافها القومية ، انطلاقا من حقيقة الانتماء الى أمة واحدة ، ليس مجرد قضية عسكرية دفاعية ولكنه مجموعة من العوامل تختلط فيها السياسة بالاقتصاد ، والوضع الاجتماعى بقوة الدولة ، والنظام السياسى بالاستراتيجية ، على أساس أن أمن كل قطر عربى يرتبط بأمن الدول العربية الاخرى (4) . أما أمن الدولة فيتمثل فى وحدة أراضيها وحماية اقليمها من أى عدوان ، وتحقيـق الأهداف العامة للمجتمع فى جو الاستقرار السياسى والاجتماعى والتنمية الشاملة .

ويمكن أن تحدد منطقة الأمن وفقا لثلاثة معايير :

1) المعيار الجغرافى ، وما لعنصر الجوار من صلات طبيعية وبشريـة ، وما يتطلبه من صلات أمنية واقتصادية تنعكس على الاطراف المتجاورة إيجابا وسلبا فالمتأمل فى خريطة المنطقة العربية ، لابد أن يتوقف أمام البحر الاحمر ، كاحدى مناطق الأمن الرئيسية من زاوية الأمن العربى .

2) المعيار السياسى أو الايديولوجى للدولة ، ونوع الافكار السائدة فيها ، وما لها من أهداف ، وما تفرضه من ارتباطات وانتماءات .

3) معيار قوة الدولة ، فهنالك علاقة بين قوة الدولة ونطاق امنهـا ، فكلمـا ازدادت قوة الدولة وتنوعت مصالحها وتعددت ارتباطاتها اتسع نطاق أمنها .

وهذه المعايير ليست على مستوى واحد من الثبات والتأثير (5)، ومن وجهات النظر الحديثة أن التنمية الحقيقية التى تهدف حقيقة الى رفع مستوى الشعب لا الى ارضاء فئات منه ببعض المكاسب البراقة ، هى مفتاح الامن القومى ، لأن

---

(3) المستقبل العربى : 2/1980 ـ ص 107 .
(4) انظر : كتاب الامن العربى فى مواجهة الامن الاسرائيـلى لاميـن هويدى (ط : بيروت 75) .
(5) المستقبل العربى : (9/1979 ـ ص 98 ـ 99) .

هذه التنمية تحقق مكاسب للشعب وهذه المكاسب تحتاج الى حماية من قوات متحمسة لواجباتها الوطنية السامية ومن هنا فان الامن الوطنى ليس أمن الدولة فقط ، بل أمن كل المواطنين ، اذ من حقهم ذلك ، كما أن من حقهم أن يناقشوا خطط وترتيبات الامن فى المجالس النيابيـة وفى المجالس المختصـة ، وخطط وسائل الاعلام المختلفة ولا يجوز التستر وراء السرية للحيلولة دون ذلك الا فى ظروف خاصة تقتضى هذه السرية ، بحيث تبنى ترتيبات الامن الداخلى على قاعدة صحيحة . أما اذا كان البنيان الامنى الداخلى مزعزع الاركان ، يعتمد على المدد الخارجى ، ويفتقد الثقة بالنفس ، فان ما يبنى عليه لا يثبـت فتشريـك الشعب فى تنمية وطنه ، وفى حمايته من أى عدوان ، وفى اعداد خطـة أمنه ، يحمله مسؤولية الامن ، والدفاع عنه والذود عن حماه ، ومقاومة ما قد يتسرب اليه من فساد ، ويجعله فى يقظة من كيد الكائديـن ، ومؤامرات الخائنيـن ، فتوطيد الأمن القومى رهين دعم الامن الوطنى ، لان قومية المعركة التى تواجهها الامة العربية مع أعدائها ، تحتم هذا الاستقرار ، ولأن فاقد الشىء لا يعطيه كما يقـال .

وأما الامن الدولى فان دور الاعلام فى دعمه يتمثل فى القدرة الاعلامية على توضيح الحقيقة ، وكشف الزيف ورفع الملابسات ، ومناصرة الحق فى المحافل الدولية ، وتعبئة الرأى العام العالمى ، للوقوف الى جانب العدل ، وهنا لابد من توثيق التعاون فى المجال الاعلامى مع المنظمات الاقليمية والهيئـات الدوليـة كمنظمة المؤتمر الاسلامى ومجلس التعاون الخليجى ، وكذلك الاتحاد الـدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية للافادة من برامجه ووسائله .

والمعيار العملى لنجاح الاعلام العربى ، ما يحدثه من تغيير عقليات الاوروبيين والامريكيين فيما يتعلق بمشاكلنا القومية ، وقضايانا المصيرية ، وطالمـا بقى الرأى العام الاوروبى والامريكى خاضعا لتاثيرات الاعلام الاسرائيلى ضد العرب رغم سياسة اسرائيل العنصرية والتوسعية . فلنراجع أنفسنا فيما نقوم به من حملات اعلامية للاقناع بمشروعية مطالبنا وقضايانا وعدالة الكفاح الفلسطينى والكشف عن نوايا اسرائيل العدوانية ، ولنبحث عن أسباب فشلنا الاعلامى .

ولعل من عوامل اخفاقنا :

هذه التناقضات فى الاستراتيجية الاعلامية العربية التى تتسم بعدم الشمول اذ لا تشترك فيها كل البلاد العربية ازاء بعض المواقف والصراعات المتفجرة ، نتيجة ابتعادنا يوما فيوما عن سياسة عدم الانحياز الايجابية .

فنجد الولايات المتحدة الامريكية رغم ارتباطاتها المصلحية وصداقتها مع أكثر الدول العربية تقف ضدها ، وتنحاز انحيازا كليا الى اسرائيل ، بل تؤازرها وتؤيدها في العدوان ، وفي محاولات تصفية القضية الفلسطينية على حساب لبنان ، ويتكرر منها استعمال حق الفيتو في قضايانا المصيرية ، كما نجد الاتحاد السوفياتي وهو الصديق لكثير من الدول العربية ، يقف مع اثيوبيا في صراعها مع الصومال العربي وأريتريا العربية ، بل ان بعض البلاد العربية لم تجرأ على أن تقول كلمة حق في قضية افغانستان ، مجاملة على حساب المبادىء التي لا تقبل المجاملة ولا يجوز فيها الاغضاء فهل يمكن الادعاء بأن لنا اعلاما قوميا موحدا ، والبلاد العربية تختلف في مواقفها الاعلامية ازاء بعض القضايا العربية قوة وضعفا ، بل ايجابا وسلبا فنحن كثيرا ما نلتقي مع أهداف القوى العظمى ، وان كانت مضادة لاتجاهنا العام على المستوى القومي ، دون أن تكون لذلك مبررات مقنعة .

فالى متى يستمر هذا التفكك والتناقض ؟ ومتى تزول هذه القيود الضاغطة ؟

ان التنازل عن حقوق أكيدة ، يقطع طريق التنسيق والوحدة . فهل إن كل القوى المتصارعة والمتحالفة على السواء يهمها ألا تكون هنالك استراتيجية عربية موحدة في هذا الجزء الهام من العالم ؟

أفلا يكون ذلك حافزا قويا لكي تنسى الدول العربية خلافاتها وتتوحد أمام الخطر المشترك ؟

ألا تفرض هذه المواقف المتضاربة وضع ميثاق شرف اعلامي عربي يحدد التزامات الدول العربية في اطار التضامن القومي ، ويحرر الاعلام العربي من القيود والضغوط التي تعرقل قيامه بوظيفته القومية ، والسمو به الى مستوى هذه المسؤولية ، والبعد به عن مهاوي الانزلاق في المهاترات الكلامية، والصراعات الجانبية ، والتنازلات عن الحقوق الشرعية ؟

أليس الاعلام العربي المشترك في المجال الخارجي وسيلة من وسائل السياسة الخارجية العربية ، يعكس هذه السياسة ويؤثر فيها ويتأثر بها ؟ إن السياسة الخارجية العربية الموحدة ، هي التي تحدد أهداف الاعلام العربي المشترك ، ليعمل على تنفيذها ، واذا انعدم هذا الاعلام فان ذلك يعني فقدان هذه السياسة الخارجية الموحدة ، لأنه لا يصح أن يتبنى أي موقف فردي .

ان الآثار السلبية على مدى فاعلية الاعلام العربى، ترجع الى تناقضات السياسة الخارجية للبلاد العربية . وأذكر على سبيل المثال تناقض المنطق الاعلامي للجامعة العربية سنة 1967 ومنطقها بعد ذلك التاريخ .

فقبل حرب الايام الستة كان المنطق الاعلامي من خلال جامعة الدول العربية يجعل ركيزته مشكلة اللاجئين ، ومن خلالها ينادى بحق العودة الى الاراضي المغتصبة .

فهذا المنطق يقوم على ضرورة الغاء الوجود الاسرائيلي، ورفض شرعية الدولة الاسرائيلية . أما عقب حرب الايام الستة ، فان اعلام الجامعة العربية ينصهر فى اطار الاعلام العربى الرسمى لدول المواجهة الذى يقوم على تحرير الارض المحتلة سنة 1967 ، أى : ينبع من المنطق الذى يتضمن الاعتراف بالوجود الاسرائيلى فى المنطقة العربية .

إن هذا التناقض الذى انعكس فى الاعلام الصادر عنها ، ودون أن تقدم له ما يبرره استغلته الدعاية الاسرائيلية ، فعلقت عليه بقولها : (إن هذا يعنى تغييرا فى العقلية العربية ، وتقبلا للوجود الاسرائيلى ، وهى خطوة ستعقبها خطوات توضح صحة التصور الاسرائيلي (6) .

والحق ان الاستاذ الشاذلى القليبى الامين العام لجامعة الدول العربية ووزير الثقافة والاعلام بتونس سابقا ، قد أدرك منذ توليه مهام الامانة العامة للجامعة ما للاعلام فى عصرنا من عمق الأثر ونشر الافكار والاتجاهات ، وما للسلاح الاعلامى من مضاء ونفاذ ، بما وصلت اليه التقنيات الحديثة فى وسائله وأجهزته فاولاه عناية خاصة ، وكان فى تصريحاته الصحفية ، وفى الندوات التى يجتمع فيها بمديرى المكاتب الخارجية للجامعة،وفى الاجتماعات الدورية لوزراء الاعلام العرب ، يلح على دعم اعلامنا العربى بالطرق العملية الموصلة كقيام مكاتب الجامعة فى الخارج بدور اعلامى مكثف ومخطط باعتبار أن مهامها اعلامية قبل كل شىء من حيث التعريف بقضايانا على حقيقتها ، ومواجهة الدعاية الصهيونية بمثلها مع استخدام الاعلام الحضارى فى الوقت نفسه من أفلام وندوات صحفية الخ .. حتى يكون فى اعلامنا العربى ابداع وأصالة ، ولا يكون مجرد اعلام دفاعى

---

(1) المستقبل العربى : 1979/1 ـ ص : 125 ـ 126 .

فى مواجهة الاعلام المضاد ، كما أوصى بتطوير أجهزة البحوث والتوثيق ، وفتح مكاتب اعلامية جديدة فى بعض دول العالم ، وتخطيط سياسة اعلامية واضحة المعالم ، ترفع اعلامنا العربى الى مستوى التحديات،واكتساب القدرة على مواجهة الصدمات ، واثارة الرأى العام العالمى بقضايانا المصيرية ، وتعمل على اعداد استراتيجية للعمل الاعلامى المشترك .

وعملا بهذه التوجيهات ، قرر مجلس وزراء الاعلام العرب المنعقد بتونس فى دورته السابعة عشرة سنة 1981 تشكيل لجنة فرعية من وزراء الاعلام فى كل من المملكة العربية السعودية والجمهورية العراقية ، وفلسطين ، ودولة الكويت والأمانة العامة للجامعة العربية (الادارة العامة) لوضع استراتيجية العمل الاعلامى المشترك ، والعمل على توفير الاموال اللازمة لتنفيذ الخطط والبرامج المنبثقة عن هذه الاستراتيجية ، على أن تعرض نتائج أعمالها على مؤتمر القمة العربى القادم .

ان وضع هذه الاستراتيجية لاعلامنا العربى تؤكده اليوم الظروف العصيبة التى تجتازها الامة العربية ، وأهمية المؤسسات الاعلامية للجامعة العربية كمجلس وزراء الاعلام العرب ، واللجنة الدائمة للاعلام العربى ، ومكاتب الجامعة فى الخارج ، ولجنة رؤساء البعثات الديبلوماسية العربية ، واتحاد وكالات الانباء العربية ، واتحاد اذاعات الدول العربية ، وغيرها من المؤسسات الرئيسية والثانوية التى تعالج شؤون الاعلام العربى وتتضافر جهودها على الخروج بنتائج ايجابية مثمرة فى هذا المجال نسأل الله أن يوفق ساسة الآمة العربية ، والساهرين على أمنها فى خدمة الاعلام العربى بما يزكى سعيها ويرفع شأنها ، ويحقق لها العزة والنصر وهو ولى التوفيق .

د. التهامى نقره

ننشـر مستقبـلا

نحـو تصور استراتيجى لشروط العمـل الاجتمـاعى العـربى المشتـرك

بقلـم : المنصـف ونـاس

هل يمكن أن أتحدث هذي الليلة ؟

شعر : مفرح كريم

تتكسرُ فوق رخام الساحة طلقات الصوت
شظاياها في جدران القلبْ
– : « معذرة .. فالخط مُعَطلْ حتى الآنْ »

* * *

أحلمُ أني أركبُ قمَرًا
والأطفال يرشونَ نجوما في حجم الزهرِ
يطوفون على عتبات السحر ، فأنزل غيطا
وأفتش عما خبأه الزمنُ القادمُ في أكمام الأرضِ ،
فلا أعرفُ هل تأتي النارُ لتحرق أولَ ميعادٍ للموتِ ؟
أَمِ النور القادمُ يُلحق أهدابَ العُمرِ ؟
– : هلْ يمكن أن أتحدث هذي الليلهْ ؟

* * *

أعرف أني أمسكتُ بنور اللغة ...
كَيْ أغزل منه شموسا وأبعثرها في صحراء الليلِ ..
وألغي كل مواعيدي للحزنِ
وألبس تاج الرُّؤيا
فالكلمات انتظمتْ بين سطور كتابي
صفاً من حوريّاتٍ يلبسن حريرا .. ودماء لاهبةً للحبِّ
فمن يأتِ الليلة يفجأني أتكلم بالعشقِ

ويبصرُ في جنبيَّ حروف الوجدِ
— : هل يمكن أن أتحدث هذى الليلةَ ؟
— : مازال الخط معطلْ

* * *

أنتظر على قارعة النارِ
أدخل بابا يُغلقُهُ خلفي أشباحُ مجهولون
فأقرأ — في سري — سورة ياسين
انظرُ حولى ، أتبيَّن هذا الخلط المحمومَ من الأصوات السفليةِ
يلتفّ ويضربني بالأنباء القادمةِ من الأرجاء
فلا أملك صرخات القلب
فمنْ يحملْ عن أوردتي أثقالَ دمي النافرْ ؟ !!

* * *

هل أملك في مكتبتي — دفتر أسماء حبيباتي اللائي
كنّ يغنين ليَ الليلَ ؟ فأركبُ أحصنةَ الكلماتِ
فأعرف ما لا يُعرفُ إلا بالصلواتِ
إن حبيباتي يغسلن — على شاطيء دجلة — أحلام القلبْ
وينصِّبن على قارعة الحمراء خيولا سابحةً في الزمن الآتي
فانتفضي يا ريحَ القلب
وسيري للبلد الآتي من ذاكرة النهرِ
فأنا أتكوَّر في عجز اليوم المألوف
ولا أعرف رقمَ الهاتفْ
هذا البرق يقطع أسلاك القلب
ولا أقدر حتى أن أتكلم هذي الليلهْ .

مفرح كريم
(مصر)

حكاية ذات مساء

قصة : بنت البحر

فرح البحر المهجور حين شاهد طفلتين قادمتين نحوه . رقصت أمواجه المغسولة مطرا وضوءا . وانفتح الشاطيء شوقا ، وأقدام صغيرة تتقدم .

كان المطر قد كف عن الانهمار وعاد الى السماء صفاؤها وتألقها حين تسللت الطفلتان خارج البيت لم تلتفتا الى الخلف .. أسرعتا بعيدا عن البيت والكبار . بدت لهما الارصفة مغسولة بالمطر نظيفة وشبه خالية أسرعتا خافقتين متشابكتى الأصابع ، مبتهجتين بالتفرج على الدنيا الواسعة الكبيرة ، تركضان تارة وتارة تترفقان لتتمليا المنازل الجديدة الملونة والاطفال الكبار اللاعبين والمغازات بواجهاتها المليئة سلعا ولعبا ، وعلى أبوابها الكرات والسلال والدمى .

توقفت الكبرى أمام دكان صغير تهمس لصديقتها .

ـ هذا دكان العم محمود ! انه يشبعني حلوى كلما أخذني أبي اليه ! هيا بنا اليه !

وركضتا نحو الداخل . طلبتا الحلوى والشكلاطة وخرجتا فرحتين بما نالتا بلا ثمن . أخذت الكبرى الشكلاطة وقسمتها نصفين ، ثم استأنفتا السير . تمتصان الحلوى وتقضمان الشكلاطة وقد نسيتا تماما البيت .

كانت الطريق تتسع وتمتد والمنازل تصبح متباعدة على جانبي الطريق ، والخضرة تنتشر وعبير الارض الراوية يفوح . وبعض أزهار صغيرة قد نبتت أو تفتحت عند جذوع بعض الاشجار أو عند أقدام بعض المساكن الجديدة . كل

شيء جديد كان يغريهما بالتشبث بالفرصة النادرة : اكتشاف العالم الباهر ولا رقيب ، فتضحك العيون وتزرعان الطريق فرحة .

كانتا قد سارتا طويلا حين بدا لناظريهما خيط أزرق يشع من بعيد ، قفزت الكبرى فرحا وهى تشير الى الافق :

ـ انظرى هناك ! انه البحر ! لنذهب اليه ولنلعب على الشاطىء ! فرحت الثانية . اتسعت عيناها العسليتان وتألقتا بهجة من أشهر طويلة لم تصحبها أمها الى الشاطىء . ولم تلعب بالرمل ولم تبن المنازل والقصور . أمسكت الكبرى صديقتها لقطع الطريق ومشتا طويلا قبل الوصول الى البحر . حتى تعبتا . حين غاصت الاقدام فى الرمل ، نسيتا التعب وانطلقتا تركضان صوب البحر .

فرح البحر المهجور واتسعت ابتسامته ، ورشت لجاته وجهيهما ، وداعبت موجاته الاقدام الصغيرة .

ـ ما ألذ الماء ! هيا نسبح فى البحر !

تقدمت الارجل فى اللجج المتكسرة على الشاطىء ! ابتلت الاحذية . ابتلت الثياب .. كان البحر مغريا وباردا . سقطت الصغرى وقد وصل الماء أعلى فخذيها شدتها الكبرى من كم معطفها الصوفى وركضتا عودا الى الشاطىء جلستا على الرمل المبتل وحفرتا بئرا عريضا . تقدمت مويجات البحر فغمرته . هللت الصغيرتان . قامتا وانطلقتا ترقصان وتركضان حافيتين على طول الشاطىء وصنعتا كرات من الرمل المبتل ورمتاها للبحر حتى كلتا .

ارتمتا منهكتين على الشاطىء تستريحان وقد شبعتا لهوا . بدا لهما أن البحر فقد ابتسامته الرائقة وصار داكنا وغير جميل . استلقتا على الشاطىء . وبقيت الايدى تعبث بالرمل . والبحرّ يعبث بالارجل الصغيرة المتعبة ، والعيون تلهو بطيور السماء .

شهقت الكبرى فجأة :

ـ انظرى ! انظرى ! لقد طلعت نجمة من البحر !

انها تقترب !

أبتهجت الصغرى ، نسيت برد أطرافها وتعبها .

لقد شاهدت نجمة كبيرة مشعة تبتسم لها . اقتربت النجمة أكثر . تابعت البنتان اقتراب النجمة منبهرتين وبقيتا مستلقيتين لا يفوتهما تقدمهـا فى تلك الزرقة المسائية الجميلة ، تتابعان النجمة ، تتناجيان حينا ، وحينا تسهـوان . وكان البحر يوشوش لهما حكايات النجمة اللذيذة ، والنجمة تكبر وتكبر وفى هالة ضوئها بدا لهما وجه سندريلا الجميل .. يقترب .

سندريلا بحذائها البلورى المسحور وثوبها الطويل المطرز تتهادى على صفحة الماء تنبت حولها فى الزرقة نجوم ولآلىء مشعة تتهادى جميلة باسمـة مضيئة ، تحمل فى جيوبها الحلوى والشكلاطة ، وتحكى لهما حكايتها مع الامير ..

حلت الحكاية ، وارتخت الاجفان ، وأغمضت الصغيرتان العيون مبتسمتين، وانثنى الجسدان ليتيسر الدفء فى سعة الشاطىء العريض القفر واستمر البحر يهدهدهما والنجمة تحكى لهما ، وخدر لذيذ يسرى فى جسديهما حتى هزهما نوم عميق .

وتعبت النجمة من السهر والكلام ، فغاصت فى الظلمة لتنام.وتعب الباحثون عن الطفلتين فرفعوا الايدى الى السماء . ولم يتعب البحر . وبقى ساهرا . وما انفك متقدما تحت ستار الظلام يداعب الطفلتين النائمتين عند أقدامه ، ويغسل الخدود الطرية المتربة . وعبثا دعت الاصابع الصغيرة النجمة لتدفع نـزق المـاء فنجمة الحلم ابتلعها الظلام . ولم تشهد بقية الحكاية .

بنت البحر

تونس في نظر الشعراء الجزائريين

بقلم : د. محمد صالح الجابري

ـ 3 ـ (*)

ومثلما كان لهذا الجيل البانى وقفاته المشهودة فى الاشادة بزعماء تونس واحزابها الوطنية ، ومشاركته الايجابية فى العمل السياسى والتضامن مع الاحداث التى عاشتها تونس وحملت بعضهم الى السجن تارة والى الابعاد والتشريد تارة اخرى فان هذه الروابط ظلت موصولة مع الجيل الثانى الذى شاهد انقسام (الحزب الحر الدستورى التونسى) وعاش التحولات السياسية اللاحقة الى الاصوات الجديدة من زعماء الحزب الذى برز بقيادة جديدة على راسها (الحبيب بورقيبة) و (الطاهر صفر) و (محمود الماطرى) وغيرهم .

وبمجرد أن أسس الحزب الجديد جريدته (العمل) فى سنة 1934 كان اول المنضمين لاسرة تحرير هذه الجريدة ثلة من المثقفين والمناضلين الجزائريين من ابرزهم الشاعران : (محمد العيد الجبارى) الذى كان شاعر الحزب الجديد بدون منازع وزعيم الشبيبة الدستورية (24) ، و (محمد الاخضر السائحى) الذى نشر بهذه الجريدة اهم قصائده الوطنية التى كتب بعضها فى مدح زعماء هذا الحزب .

من المعلوم ان (لمحمد العيد الجبارى) فيضا غزيرا من الاشعار الوطنية التى نشر بعضها بجريدة (العمل) ، وكتب بعضها الآخر فى المنافى والسجون المختلفة التى تردد عليها ، وقد جمع الشاعر هذه القصائد فى ديوان لديه الا أن والدته أقدمت على حرق اشعاره الاولى خوفا من السلطات الاستعمارية وهو

(*) انظر الفكر عدد 5 ـ س 29 ـ فيفرى 1984 .

(24) يذكر المرحوم محمد المرزوقى فى مقدمة ديوان (اللهيب) للشاعر ان العيد الجبارى ترأس مجلسا « اداريا » للشبيبة الدستورية التى كانت تمثل أعضاء الحزب من الشباب .

ما أشار اليه الشاعر فى حسرة فى مقدمة ديوان (اللهيب) التى كتبها فى 26 اكتوبر 1940 وأودعه لدى الشيخ (زين العابدين السنوسى) ليرى النور بعد ذلك فى سنة 1974 .

وفى هذه المقدمة يشير الى هذا الحادث بقوله : (قد كانت نكبتنا السياسية قاضية على مجهوداتنا الادبية اذ وقع القاء القبض علينا للمرة السابعة فى اليوم السابع من آخر شهر سنة 1939 من قبل السلطة المحلية الافرنسية بتونس .

فكان ذلك مدعاة لوالدتنا أن القت بنتاجنا الى النار واللهيب من دون عطف على بنات الاديب ، وجملة ما القى به الى النار خمسة آلاف بيت من الاشعار وهكذا حال السعير ، وضغط المستبد الكبير دون مأمل الاديب ومناه وما تشاؤون الا ان شاء الله ، مالك الكون ذو الجلال ، الباعث فى نفس المنكوب الصبر على الاهوال) (25) .

وبذا فان ديوان (اللهيب) وبعض القصائد القليلة المنشورة فى كتابه (الفرائد فى العلم والادب والاجتماع) الذى نشر سنة 1936 هى الحصيلة الشعرية التى نجت من المحرقة ، ولكنها مع ذلك حصيلة تقدم لنا صورة من نضال الشاعر الذى لم يكتب الشعر فى غير الموضوعات السياسية والاجتماعية التى لها علاقة بنقد السلطات الاستعمارية من قريب او بعيد .

وفى هذه القصائد القليلة نلمس الصلة الوثقى بين الشاعر وبين الحزب الدستورى الذى انتمى اليه ، واصبح من قياداته المرموقة ، كما نلمس فى هذه الاشعار وطنية فائرة ومشاعر فياضة وحماسا متقدا سيما اذا علمنا بأن الشاعر كان من اوائل الذين عملوا على صوغ الاناشيد الوطنية الحماسية لتعبئة الشباب والجماهير ، وجعلها تتجاوب مع اهداف الحزب الجديد وآماله .

---

(25) مقدمة ديوان (اللهيب) التى كتبها الشاعر بنفسه ، وقد طبع هذا الديوان سنة 1974 ، ولنجاة الديوان من الضياع قصة طريفة يرويها الشيخ زين العابدين السنوسى فى مقال له نشر بمجلة (تونس المصورة) ديسمبر 1947 .

ومن فضائل هذا الشاعر وفاؤه للزعماء الجدد الذين يضطلعون بمسؤولية قيادة الحزب وعلى راسهم (الحبيب بورقيبة) الذى كان مدحه انذاك مغامرة غير مأمونة العواقب ، ومع ذلك فقد تجرأ (العيد الجبارى) على أن يهدى باكورة مؤلفاته (الفرائد ٠٠) الى هذا الزعيم الشاب قائلا : «الى من لاقى ما لاقيت ، وقاسى ما قاسيت ، الى من عرفته ثابتا على مبدئه فلا تزعزع ليالى النوائب عراه ٠٠٠ الى الليث الضرغام والزعيم المقدام الاستاذ سيدى الحبيب بورقيبة ، اقدم هذه الرسالة كعلامة على صدق دائم واخلاص أبدى» ٠ وقد اردف الشاعر هذا الاهداء بتوشيح كتابه بصورة الحبيب بورقيبة وكتابة اول قصيدة عن كفاحه وجهاده عنون لها باسم (الاستاذ الحبيب بورقيبة) ووشى بها الصفحة الاولى من كتاب (الفرائد) مع مقدمة عرف بها بالزعيم الممدوح وخصاله ، وذلك بمناسبة زيارة الزعيم بورقيبة الى باريس للدفاع (عن هذا الشعب المنكوب ، وعن حقه المغصوب) كما يقول الجبارى ٠

وفى هذه القصيدة نرى الشاعر يبدى الاعجاب بخصال زعيم حزبه ، ويؤكد على مدى الترابط بين هذا الزعيم والشعب ، معبرا عن التبرم والانزعاج من طول هذا الظلام الذى لم تستبن له نهاية بعد :

كفى الشعب ما لاقاه من أعظم القهر	وما هو قد يلقى من الغدر والمكر
فانه شعب فاضل نسل فاضل	وماكل من يابى الرضوخ سوى حر
فسر يا زعيم الشعب عنه مدافعا	لتبعد عنه ساير الضر والشر
فانت وليد الشعب والشعب سالفا	أبى الصمت ان ابعدت للمهمه القفر
فسر يا رسول الشعب للبحر خارقا	كما موسى خرقا سار فى عاصف النهر
فانت حبيب الشعب فى كل موقف	وانت حبيب الشعب فى الحل والسير
وإن لهذا الشعب حر وانه	ليهزأ بالنيران والعسكر المجر (26)

انه لمن الصعوبة بمكان الالمام بكل جوانب العلاقة التى نشأت بين هذا الشاعر الجزائرى المهاجر وبين الحركة الوطنية التونسية الجديدة الممثلة فى (الحزب الحر الدستورى الجديد) اذ لم يكن انخراط (العيد الجبارى) فى هذا الحزب انخراطا عاديا ولكنه كان قد كرس كل جهاده فى خدمة هذا الحزب ٠٠٠ تشهد بذلك كتاباته التى ملات جريدة (العمل) منذ نشاتها خلال سنة 1934 ،

(26) (الفرائد ٠٠) ص 6 ٠

والمرات الكثيرة وعددها تسع مرات دخل فيها السجون والمعتقلات ، اضافة الى اضطلاعه بمهمة تكوين الشبيبة داخل الحزب الدستورى وهى مهمة لا يمكن ان يعهد بها حزب عريق منظم الا لمن يحتل مكانا مرموقا فى عضويتـه ، وما شهادة زعماء تلك الفترة (27) وتكريم الدولة التونسية له بعد وفاته (28) الا بعض الوفاء لهذا الشاب الجزائرى المهاجر الذى اودى فى الثلاثينات من عمره ولسان حاله يقول :

اذا مت مسجونا فلا تك ناسيا نضالى وقل يا رب فارحم شهيدنا
فما أمة أحيت جهاد رجالها وعزتها الا مؤملها دنا (29)

وخلافا لهذه الشخصية الوطنية الفذة فان مشاركة الشاعر (محمد الاخضر السائحى) لم تتعد فى الحقيقة الاسهام ببعض القصائد الشعرية التى نشرت بجريدة (العمل) الدستورية سنة 1938 ، وقد ضمن احداها اعجابه البالغ بشخصية زعيم الحزب (الحبيب بورقيبة) ، والاعراب له عن تأييد الشبيبة لخطته فى الكفاح ونضاله ضد الاستعمار مبررا هذا المديح باخلاص هذا الزعيم للاوطان المغربية ومبادلة هذه الاوطان زعيمها الحب والعرفان والنصرة :

يا شعلة فى هوى الاوطان تتقد لله فى حبك الاوطان ما تجد
سر فى الطريق فاذن الدهر صاغية وما عليك من الاعداء ان جحدوا
سر فى الطريق وروح الله تكلؤكم لا تخشى منتقدا قد جاء ينتقد
فاننا لا نحيد الدهر عن خطط افنيت فيها ربيع العمر تجتهد (30)

---

(27) يقول الطاهر صفر احد زعماء الحزب فى تلك الفترة فى مقدمة (الفرائد ...) واصفا الشاعر وشعره : (ترى للعيد فى شعره تاثيرا عجيبا لانه من الذين احسوا بآلام الحياة وقاسوا شدائدها ، فهو اذ يتكلم عن خبرة ودراية وعن صدق ومعرفة ، لا عن تصنع وتكلف) .

(28) اطلق اسمه على عدد من شوارع مدن تونس وعلى احد المستشفيات ، ويأتى ذكره باستمرار كلما ذكرت الحركة الوطنية التونسية فى الصحافة وعلى لسان الزعماء .

(29) (اللهيب) ص 30 .

(30) (العمل) 17 مارس 1938 .

ولم يقصر الشاعر السائحي مديحه في هذه الفترة على زعيم الحزب الدستوري الجديد وحده ، ولكنه موقف واحد من بين المواقف الاخرى التي وقفها مؤيدا لنضال الشعب التونسي بأسره خاصة عندما تندلع الاحداث وتدلهم الامور ، وتسيل دماء أبناء الشعب في المصادمات التي كانت تحصل بين السلطة الاستعمارية وبين الشعب ٠

ففي شهر فيفري 1938 قرر عمال ميناء بنزرت الاضراب فما كان من السلطات الاستعمارية الا أن أذنت باطلاق النار على المضربين ، فاستشهد الكثير من العمال ، وكانت هذه الحادثة ايذانا بمرحلة الدم ، ومن وحي هذه الحادثة (كتب الاخضر السائحي) يساند كفاح الاشقاء من ابناء تونس مندداً بمن اسماهم (اعداء العدالة) موجها النصيحة الى هؤلاء بأن لا يغتروا بصمت الشعوب ، فوراء هذا الصمت ثورة متأججة وضرام وشيك الاندلاع :

الا ألقوا عصا الطغيان ألقوا فشعب محمد لا يسترق
فلا يغرركم منه سكوت ولين في مواقفه ورفق
فان وراء هذا النطق صمت وان وراء ذات الصمت (نطق) (31)
فليس من العدالة بين قوم وقوم اخوة في القطر فرق (32)

يشير في البيت الاخير الى أسباب اندلاع الاضراب وهو تعمد السلطات احداث فوارق مشطة في الحقوق بين عمال ميناء بنزرت وبين عمال موانيء اخرى تعميقا للخلاف والشقاق بين أبناء القطر الواحد ٠

ورغم عودة السائحي الى وطنه وانقطاع صلته اليومية بما يجري من احداث في تونس فانه ظل يتابع على البعاد اخبار القطر الشقيق ويوالي الصحافة التونسية (33) بقصائده المختلفة التي نشرتها مجلة (الاسبوع) طيلة سنتي 1948 - 1949 وقد ترددت هذه القصائد بين معالجة الموضوعات الاجتماعية والذاتية والقضايا الوطنية ٠

وعندما كان يتناهى اليه خبر من الاخبار الفاجعة التي تمس بتونس ، كان لا يتوانى عن مؤاساة الشعب الذي عاش بينه ردحا من الزمن وعايش مشكلاته

---

(31) الصواب ان وراء هذا الصمت نطقا ،

(32) (العمل) 17 فيفري 1938 ،

(33) من المفيد ان نذكر بان الاخضر السائحي نشر قصائده في عدد من المجلات والصحف بداية من سنة 1936 الى سنة 1949 وهذه الصحف والمجلات هي (الواجهة) (المذياع) (الافكار) (الزمان) (العمل) (الاسبوع).

وأحبه من صميم القلب مثلما حدث فى موت باى تونس الوطنى (محمد المنصف باى) (34) الذى توفى فى نفس الفترة الذى فقد فيها العالم الاسلامى مصلحا وزعيما بارزا هو محمد على جناح مؤسس دولة الباكستان الحديثة ، فما أن بلغه النعى وهو (بباتنة) حتى ذرف (دمعة حارة على فقيدى تونس والباكستان) ، أرسل بها الى جريدة (الاسبوع) جامعا بين الحدثين وبين اللوعتين فى قصيد مؤثر :

أى طود واى مجد اطاحا من نعى اليوم منصفا وجناحا
هز بالصدمة القلوب والقى فى مغانى محمد أتراحا
وأضاف الاحزان للهم فيها وأفاض الدموع والارواحا
جلل الحزن كالظلام ربوعا حينما غيبا وعم البطاحا (35)

لقد تمنى الشاعر لشدة الاسى والحزن ان يكون هزارا له ذلك الصوت الذى يستطيع ان ينشر الخبر شرقا وغربا ، ويملأ الارض نواحا بسبب غياب علمين وفقد عظيمين دفعة واحدة خسر بموتهما العالم الاسلامى خسارة جسيمة :

ليت ، لى كالهزار لحنا جميلا املا الارض يوم غابا نواحا
اندب (المنصف) العشى وأبكى منقذ الهند العبقرى صباحا
يا جناحين للشماليين هيضا وأشمان من ربى الشرق طاحا
يا وفيان لم يخيسا بعهد وأبيان لم يناما ارتياحا
لا ارى ـ اذ نعيش فى الحزن دهرا أسفا عنكما ـ علينا جناحا (36)

ان هذه الصلات الزاخرة بين الحركة الوطنية التونسية وبين الشعراء الجزائريين عملت دونما شك على وصل الكفاحين ، واطلعت الشعبين هنا

---

(34) محمد المنصف باى ، من الوطنيين التونسيين الذين غاضبوا الاستعمار فتعرض للعزل من منصبه كباى لتونس سنة 1941 ، ثم نفته فرنسا وقضى معظم حياته بالمنفى الى أن توفى سنة 1948 .

(35) (الاسبوع) 8 أوت 1948 .

(36) المصدر السابق .

وهناك على مدى اللحمة القائمة والموصولة بين النضالين (37) واحدثت قنوات متعددة وعميقة للاتصال بين احزاب القطرين وبين الصحف الوطنية وبين الحركات الاصلاحية وبين المعاهد العلمية ٠

وما قيام هؤلاء المناضلين والشعراء والكتاب بالانخراط فى الاحزاب التونسية وتحمل المسؤوليات فى صلبها ومشاركة الوطنيين التونسيين السجن والاعتقال وصنوف التنكيل الا دليل على ما يتحلى به هؤلاء من رجولة وشهامة واحساس عميق بالمسؤولية ٠

واذا كان هذا النفر القليل من الجزائريين المقيمين بتونس قد تمكن بسبب ظروفه الخاصة من الاسهام المباشر فى النضال الوطنى التونسى ، وتزكيته بالتأييد والحماس والكتابة فان الاغلبية العظمى من الناشئة المهاجرة الذين أتموا تعليمهم بتونس وتأثروا بقيام الحزب الحر الدستورى ومنهجه المغربى الاسلامى ، بادروا حال عودتهم الى الجزائر برفع عقيرتهم والمناداة بتكتيل جهود المصلحين وتكوين الخلايا والتجمعات والاحزاب واصدار الصحف الوطنية .

(يتبــــع)

د. محمد صالح الجابرى

---

(37) يفسر الدكتور صالح خرفى فى كتابه (شعر المقاومة الجزائرية) ص 143 هذه اللحمة من خلال شعور الجزائريين الوافدين على تونس فى قوله : «كان الجزائريون الوافدون على عاصمة (الزيتونة) وان اجتازوا حدودا مصطنعة بتبعاتها الجمركية يشعرون بانهم لم يبرحوا وطنهم ، ويزيد هذا الشعور حدة واصالة ان الراية الدخيلة التى ترفرف على القطرين واحدة فلم تكن الفئة الجزائرية فى تونس فى حاجة الى من يلقنها ضرورة التلاحم والتجاوب مع الانتفاضات التى عرفتها (الخضراء) بل كانت تعتبر نفسها فى صميم الركب ، وكثيرا ما تطلعت الى نضالاتها فى غير تطفل ٠

ولم تكن الرسالة العلمية التى هى السبب الاول للتغرب لتخفف من ادراك الطالب خطورة الرسالة الوطنية التى تتجاوب مع مبادئه وغاياته البعيدة ٠ وقد يكون الكبت السياسى الذى يلقاه الجزائرى فى بلاده باعثا لتغربه مظهرا وطنيا وسياسيا اكثر منه علميا ويكسب صورة من الازدواج المتلاحم بين حلقة درس فى جامع الزيتونة ومنبر خطابة فى احد النوادى» ٠

الرحيل مع البجع المسافر

إبداع : محفوظ الزعبي

شجر عينيك الظليل فى الهجيرة
فردوس احلامى
وجزر «واق الواق» في ذهن السندباد
يا سكة الحنين
للنورس الظمآن لغديرك
من كان يعرف مطر الفجر في عينيك؟
وغسق الندى المضيء بالعطور
اعرف جيدا
اننى سافرت على متن السنين
فى كل ساحة اتنشق ريحك
فى لعب الاطفال
وفى صدى أعمدة الهاتف
وعبر انغام العصافير
ومداخن المدن البعيدة

وانت كما عرفتك
فيك تتفتق الاسرار
عن نقاوة وجه الغدير
وتسريحة الشفق الحانى
اعصر من عينيك نبيذ العشق
فى البهتة التى تضيعنى
فى وحشة الصمت الخريفية
فى كآبة الانتظار
ان السماء لا تهمنى
بقدر عينيك الكبيرتين
تتقلص كل المساحات بينهما
وتقصر المسافات
للبجع المسافر
فى زمن الرحيل ...

* * *

تغازل الريح عينيك
مع الغمام

جدائلك المنسوجة منخيوط الشمس
والمطـر

شآبيب احلامى
وبارق النشوة الذى لا ينتهى
فى جسمك المارد
يا كل العنفوان
للصمت المعلق بين الحيرة والتشرد
فى الملمح الجوكندى
فى ذلك الوجه الفجرى الناطق
مجاذيف اشرعتى
وامـواجى ...

* * *

ان حبك البلورى كالرعد والمطر
كحقل من حقول نوفمبر
كخطوط الحلازين
فى الالق الذى يكشف الاشياء
عند التعرى
فى ذلك العمق يتنفس هذا الحب
الى القرار
ويظل كالشجر ...

* * *

البحر يغرف من لجج عينيك
محاره السنىء
والموج مشمول بدفق العذوبة
منذلك الزعتر المشبع برائحةالبرارى
من الحصى المبعثر على التلال
وعسالج التعانق
كل الخرز الذى تحملينه
يرسم صورة هذا الحب النابض
فى مرايا العمر الهارب
بين المد والآخر ...

* * *

القزح الذى يشرب الالوان
من عينيك المسائيتين
حلم الطيور على الشطآن
والشفق الناعس على وجهك
شقائقى وحنائى
فى البساتين التى وهبتها لقلبك
والكروم التى زرعتها لكبريائك
كان الحرير اهازيجى
واغنيات المزارع
وانت كما صورتك فى ذهنى
اكبر مما تكونين
اكبر من اللثمة التى امنحها لحبك
واعلى من القمم التى ترسم شموخك
وازكى من السنابل
واعتى من الانهار ...

محفوظ الزعيبى

قراءة فى كتاب «الابستملوجيا» للشاذلى الساكر

بقلم : الدكتور رضا الخالدى

صدر عن **مؤسسة الأخلاء** لصاحبها الشاعر **الصادق شرف** كتاب عنوانه « **الابستملوجيا** » (240 صفحة) بقلم الاستاذ الشاذلى الساكر. وفى « كلمة الأخلاء » قام الصادق شرف بمحاولة اعتبرها الاولى من نوعها ببحث السنى - لغوى ، حدد فيه خصوصيات اللغة العربية ومميزاتها كما ابرز فيه **نواقص** الكتابة العربية وأهمها عجزها عن استيعابها للمصوتات التى أسماها - **شكلات** - ضمن هيكلتها او بنيتها وهو ما يضطر المتعامل معها الى فهم المعنى والسياق قبل التوصل الى القراءة - او الاملاء - الصحيحة . وهذا **المشكل العويص نشأ** مع اللغة العربية وتواصل معها لكن باكثر حدة لابتعادنا عن **الفطرة** . وعمل الكثير من اللغويين وفقهاء اللغة على حل هذا المشكل لكن بدون جدوى .

إن ما قام به شرف اليوم هو فى غاية الاهمية - بعد المحاولة القيمة جدا التى قام بها الاستاذ **البشير بن سلامه فى** العديد من كتاباته - وخلاصة ما اقترحه شرف هو التحول من الكتابة «الشكلاتية» الى الكتابة **«الحروفاتية»** وتصير تبعا لذلك افقية لا تعامد فيها للشكل على الحرف وهو نسيج **على شاكلة** الكتابة القرآنية فى جانب منها والعروضية فى جانب آخر **واعراب الاسماء** الخمسة ايضا ، بايجاز تصير كتابتنا - الكل فى الكل - حروفا كلها **بالغاء** الشكلات (الكسرة والفتحة والضمة) النائبة عن **الحروف** .

محاولة خطيرة وشجاعة وهامة ندعو بالحاح الى النظر اليها بعين الاعتبار وتقييمها ثم اعتمادها ، ولم لا ؟

اما بالنسبة لموضوع الكتاب فهنالك ثلاث نقاط بارزة على ما اعتقد وهي :

اولا : عمل الاستاذ الشاذلي الساكر على جعلنا نحس احساسا «موضوعيا» بعدمية أو بانعدام المادة وبأن كل شيء ينطلق من الطاقة التي هي لا شيء وينتهي الى تصورات مادية هي في آخر الامر – لا شيء – وبأن كل شيء مربوط بأدوات الحس التي تترجم عنها خارجيا الى لون وصوت وطعم ورائحة ... تصبح اشياء يعتقد انها كذلك وهي في حقيقة الامر تصورات – او تهيئات – مثلها مثل التي تحدث في الحلم اثناء النوم . وقد ركز كثيرا على نسبة المكان والزمان معتمدا على احدث قوانين الفيزياء الحديثة . كما ان كل شيء مرتبط بالحالات النفسية التي يكون عليها الشخص. وبأن ما يميز حالة لا يميز اخرى وبأن مميزات الحالات تتناقض أو حتى تتضارب وتبعا لذلك جعلنا نحس باننا كذوات لا وجود حقيقي لنا مثلنا مثل المادة أية مادة ونحن عدم في عدم . ما قدمه الساكر ليس فلسفة عدمية بل هو علم لانه اتخذ المنهج العلمي الصارم والتزم بكل القوانين والثوابت التي تعتمدها علوم المادة والعلوم الانسانية المعاصرة .

ثانيا : يقول الساكر : إن كل العلوم لها نفس القوانين في الادب والفن والفلسفة أى انها ذاتية وفردية ونسبية وان طبيعة المعرفة هي نفس طبيعة القصص الخيالي العلمي وان الفرق بين «انشتاين» مثلا و «جول فيرن» هو استعمال الاول للرياضيات لمنظومة ولتجريد أكثر . وبأن أية قوانين او نظريات منظومة علمية أو نسق رياضي لا تدل على شيء معين له كيان موضوعي وان التقنيات كالنظريات التي هي نتيجة لها هي مجرد مجردات صورية افتراضية اصطلاحية اوجدتها حالة اليقظة . اى ان العلم والتقنية هي مجرد نتائج لبعض قوانين العقل وهو في حالة اليقظة هذا العقل الذى ابتكرها وافترض صحتها وعمل على فرضها مع انها لا تتفق مع معطيات الحالات النفسية الاخرى (العصاب – الذهان – الطرح – النوم – الهستيريا – النيام المغناطيسى – الخ ...) وهي تتغير بتغيره وتزول بزواله كما انها تتغير بتغير الحالات وتزول بزوال حالة اليقظة وكل صورة للكون والعلم هي من وضعنا ومن اختيارنا وخاضعة لنا هي مجرد بناء متناسق ، قوانينه غير متضاربة ومتجانسة .

ثالثا : يدلل على ان المبدعين الاوائل للعلم هم العرب وان كل العلماء الاغريق ما عدا ثلاثة أو أربعة قد جهل كل شيء عنهم وعن حياتهم وضاع

الانتاج المنسوب اليهم برمته · كما ينفي وجود علم هندي بمعناه الحديث وبين ان طبيعة الفكر الفلسفي والديني الهندي هي متضاربة تماما مع المفهوم الذي نعطيه اليوم للعلم ·

الكتاب يحتوي على الكثير من المعلومات ومن التحاليل والاستنتاجات القيمة التي لا مناص للجامعي وللطالب وللتلميذ وللمثقف عموما من الاطلاع عليها فشكرا لمؤسسة الاخلاء الرائدة لطبعها لمثل هذا العمل المشرف وشكرا للشاعر الصادق شرف الذي فتح نافذة يتنفس منها امثال الاستاذ الشاذلي الساكر ·

الابستمولوجيا

العدد 38 من الاخلاء بتاريخ جانفي 1984 كتاب للشاذلي الساكر بعنوان «الابستملوجيا» وهو كتاب دسم يجد فيه القارئ وخاصة الدارس (كتاب البكلوريا) كل ما يجب عليه ان يعمله عما يسمى اعجميا بالاستملوجيا التي تدخل في نظرية المعرفة والتي هي النظرة النقدية للعلوم قصد تحديد اصولها المنطقية وقيمتها واهدافها ·

وللكتاب ثلاثة ملاحق نعتبرها هامة اذ الملحق الاول يتعرض الى ما حققه العرب في ميدان المنهج التجريبي وهم أول من اعتنوا بهذا المنهج في طريقته الحديثة بينما يتعرض الملحق الثاني الى اهم النتائج التي حققها المنهج العلمي التجريبي في الغرب في السنوات الاخيرة ·

وفي الملحق الثالث والاخير يطرح الكاتب مسألة وجود انواع مختلفة متنوعة متضاربة متناقضة من المعرفة ويقول بوجود انواع من المعرفة ـ في غير حالة اليقظة الواعية ـ في حالات النوم والغيبوبة والذهول والوساطة والهوس والهلع والمرض ثم يحاول بسط القوانين التي تربط بين كل تلك الانواع من المعرفة في مجموع كل الحالات بالرجوع الى ما ابداه في تعليلاته فيما اسماه سابقا بعلم النفس الزمني في كتابه «الكرنوبسكلوجيا» (الاخلاء عدد 24) ·

محسن بن حميده

قراءات سريعة

• نشـــرة الاعـــلامية :

اتصلنا من الصديق جواد صيداوى – مشكورا – بالعدد 7 لشهر أكتوبر 1983 من نشرة «الاعلامية» التى تصدر عن الوكالة الفرنسية للاعلامية بباريس باشرأفه ويساهم فيها اختصاصيون اعلاميون من العرب والاوربيين وصدور مثل هذه النشرة باللغة العربية لا تخفى أهميتها عن العرب والوطن العربى وعن اللغة العربية وما يمكنها القيام به :

أولا من تعاون علمى وثيق بين العالم العربى وأوربا وبقيـة العالم ايضا اخذا وعطاء وتطويرا وتوفير وسائل وفتح آفاق ؟

وثانيا من ابحاث جادة حول التربية الاعلامية مع التمييز بين مستويات وأساليب الاعداد وتلبية الحاجات الطارئة على اختلافها وتنـوعهـا كاعـداد الناشئة الصغار أعلاميا والاعداد المستمر والتدريب الاضـافى للعـاملين فى مجالات الاعلامية ثم اعطاء جميع المواطنين فكرة عن الاعلامية وعما يمكنهم أن ينتظروه منها ٠

كما تهتم النشرة بعلم تنظيم المكاتب وتعدنا فى العدد القادم ببحث فى الخطة النموذجية كاياك (Kayake) وأهدافها ٠

• دراســات كويتيــة :

من منشورات الاخ الاديب فاضل خلف الطبعة الثانية من كتابه « دراسات كويتية » بتاريخ 1981 ومن المعلوم ان الطبعة الاولى صدرت بتاريخ 1968 .

والكتاب مجموعة أحاديث اسبوعية تاريخية وأدبية عن الكويت وأدبائها أذيعت بالكويت ما بين أكتوبر 1961 وجويلية 1962 قبيل ان يغادر الاستاذ

فاضل خلف الكويت الى تونس حيث قضى سنوات طـوالا ملحقـا صحفيا بسفارة الكويت ببلادنا الحبيبة اليه وان رحل عنا وعن تونس الاديب فاضل فان آثاره القيمة المتواصلة تبلغنا بدون انقطاع بفضل دماثة اخلاقه وحنينه الدائم الى البلاد والاصدقاء فشكرا له وانا لوده لحافظـون ولاخبـار وطنـه الحبيب وادبائه لمتعطشون .

• الذئـاب والزيتـون :

صدر بتاريخ 1983 عن الدار العربية للكتاب بتونس مجمـوعة قصصيـة للكاتب الملتزم ذى الادب الهادف افنان القاسم بعنوان : «الذئاب والزيتون»

وتحتوى المجموعة على 22 قصة كتبت ما بين 1970 و 1976 وتتقارب مدا وجزرا ولكنها تتحد فى الموضوع فكلها تقريبا فى الواقع اللبنانى الفلسطينى المأسوى والتعلق بالارض الام والثبات على المقاومة الصامتة حينا والمتفجرة احيانا ضد الاحتلال الاسرائيلى والمعلوم لدينا ان افنان القاسم كاتب غزيـر الانتاج متنوعة تجاربه تتجاوز مؤلفاته ـ من مجموعات القصص والمسرحيات والروايات والدراسات ـ العشرين عنوانا .

• الحـرب فى لبنـان :

كتيب للدكتور نبيل نعمان وهى محاولة تقييم للارضية البشرية والاجتماعية وللجوانب الصحية الطبية والجراحية خاصة وللمساهمات الدولية فيها فى حرب لبنان وبالخصوص فى فترتها الاولى ، 1975 ـ 1976 .

وهذا العرض الغنى بتحقيقاته الرفيع بموضوعيته التى لا تنزل ابدا الى التشعبات السياسية بمقاربته للمسألة اللبنانية الاليمة هو عمل ستكون له لا محالة قيمته التاريخية .

والكتيب من منشورات «دار نعمان للثقافة» صدر بتاريخ اكتوبر 1979 باللغة الفرنسية .

• مدخل الى فلسفات الشرق الاقصى :

صدر بتاريخ 1980 باللغة الفرنسية عن «دار نعمان للثقافة» كتيب بالعنوان

اعلاه لاستاذ الفلسفة جهاد نعمان فى التعريف بالفلسفة الالحادية وينقسم اساسا الى قسمين ·

الاول فى أصول الفلسفة الالحادية وتطوراتها حتى بلوغها المرحلة الحادة التى يمكن تسميتها بالالحاد المطلق او الشريعة السلبية المعكوسة ·

ويعطى القسم الثانى نظرة عامة عن فلسفات الشرق الاقصى على مختلف صورها من الكنفوشيانية والطاووية والهندوية ذات الصورة البراهمنية والطبعية الى البوذية ·

ومن المعلوم ان ديانات الاقصى خلافا لوحدانية الاديان الثلاثة المرسلة نعتمد على ان جذور الانظمة الاجتماعية والسياسية هى فى الطبيعة البشرية المتحدة والاصل ·

• مع الشعب فى البرلمان :

صدر بتاريخ 1983 للمفكر المغربى الديمقراطى الاستاذ عبد الكريم غلاب كتاب بعنوان «مع الشعب فى البرلمان» وهو مجموعة مساهماته فى مجلس النواب المغربى كرئيس للفريق الاستقلالى للوحدة والتعادلية للمدة النيابية 1977 — 1981 قبل ان يختاره جلالة الملك الحسن الثانى وزيرا للثقافة فى 5 من نوفمبر 1981 ·

وبالكتاب عرض واضح موضوعى لجميع الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية الداخلية والخارجية الآنية والمستقبلية مع تحليلها وتقديم الحلول المناسبة لها فى نطاق تعادلية ترمى الى ازالة الفروق الهائلة الموجودة بين طبقات المجتمع المغربى ·

وباعتبار ان الديمقراطية هى اهم اساس لبناء اجتماعى واقتصادى عادل وبالتالى شرط اساسى لنجاح المعركة ضد التخلف فان المؤلف يقدم فى هذا الكتاب صورة لمساهمته مع الشعب فى النضال الديمقراطى لصالح هذا البناء وصنع تاريخ المغرب الحديث ·

والكتاب نموذج ممتاز لادب الخطابة البرلمانية التى عوض ان تعتمد الدمغجة

والضوضائية تعتمد اساسا الموضوعية والنظرة الواقعية والمنطق العلمي الصحيح والمناقشة الهادئة الرصينة الهادفة .

ليس هذا بالغريب من الاستاذ عبد الكريم غلاب الاديب الممتاز والمفكر الاصيل وأحد اعلام المغرب الشقيق .

• ثمار مفقودة (1983) :

كتيب باللغة الفرنسية لبهيجة ڤعلول تسرد لنا فيه ذكرياتها ذكريات الطفولة خاصة بكل بساطة وسذاجة ممتعة ذكريات عائلية وخاصة لكن تتخللها كثير من الاحداث القومية بسبب نشاط أبيها محمد ڤعلول فى الحزب وفى الاتحاد العام التونسى للشغل قبل الاستقلال وبعده .

والكتيب لطيف وثري يقرؤه القارىء بسهولة وامتاع .

• المدخل الى الأدب الجزائرى الحديث :

صدر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر بتاريخ 1983 كتيب بعنوان « المدخل الى الادب الجزائرى الحديث » فى سلسلة « فى الادب الجزائرى الحديث » التى اعتزم انجازها الدكتور صالح الخرفى للتعريف بالحركة الادبية الحديثة فى الجزائر قبل الاستقلال وبعده .

وهذا الجزء الاول من السلسلة يتناول الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية والادبية لاثبات وجود أدب عربى بالجزائر منذ أواسط القرن الماضى مع الامير الشاعر عبد القادر وتاكيده خاصة منذ أوائل القرن العشرين الذى بدأت تتخرج فيه البيئة العلمية والادبية خاصة وفى الدرجة الاولى بفضل تونس وجامعتها الزيتونية .

ونعتقد يقينا ان هذه السلسلة ستضيف صفحة ابداعية مضيئة لاعتزاز الجزائر بعروبتها واسلامها .

• الطفلة انتحرت :

هذه المجموعة الاولى القصصية لبنت البحر (حفيظة قارابيبان يمن) وتقارب العشرين قصة قصيرة لا تتجاوز أطولها ثماني صفحات والتى هى أقرب الى تصوير الحالات النفسية التى يغلب عليها التيه والقلق والحزن والاسى والحسرة والخوف والفراغ حيث تعوى الريح وتتزاحم الاشباح وتتداخل

الخيوط وتتشابك وتضطرب الاجواء وتصطك الاجسام والاسنان وترتبك المشاعر والاحاسيس .

وما تكاد الطفلة تنعتق أو تظن ذلك حتى تجد نفسها جالسة فى بيتها الكبير وحدها وفوق أكتافها حمل السنين وفى خاطرها صور توقظ فيها ألف حسرة ونافذتها لا تفتح الا على طريق خالية .

ثم ما أتعس هذه الشابة التى بعد أن شربت سواد كأسها ومرارتها وأضاعت قوة أمسها أخذت تشعر بالموت جد قريب يدب اليها خفيا غامضا ساكنا ولا قدرة لها ولا صوت ... وسط أشباح الظلام .

هذه هى مأساة كل شابة متحررة تنشد الحلم فى الخيال لا الحقيقة فى الواقع فلا تفتأ أن تنساق اليوم أو غدا الى الانتحار أو تكاد ... والمجموعة من نشر الدار العربية للكتاب بتونس 1983 فى 130 صفحة .

• دولة إسرائيل (1983) :

كتبه قدمي كوهين سنة 1930 ووضع فيه فلسفة الصهيونية ووصف حال اليهود وما أصابهم فى تاريخهم من مصائب واضطهادات وعبر عن اطماعهم فى إقامة دولة على أرض الميعاد تتسع للعرب ولليهود كل اليهود وتكون مستوعبة لعشرين مليونا وهو نفسه يطالب لها بحدود من البحر الابيض فى مضيق تينا الى كل سيناء وفلسطين وكل غرب سوريا من جولان وجبل الشيخ الى تدمر بلد زنوبيا اليهودية كما يدعى وشرقا الى سيناء عائدا الى البحر الاحمر .

والشبه واضح اليوم بين هذا التخطيط وبين ما يجرى من أعمال اسرائيل التوسعية التى هى الى الآن مطابقة له مطابقة تامة .

ومع هذا فكاتب الكتاب مفكر صهيونى معتدل جدا اقترح تكوين دولة نصفها من العرب ونصفها من اليهود فى أرض فلسطين .

ولكن ويل للعرب من يهود أسرائيل المتطرفين فى الصهيونية الذين لا يقبلون بوجود العرب الا كمستعمرين أو كلاجئين يجب التخلص منهم بالابادة.

والكتاب من تقديم أحمد بكير محمود وتعريبه .

• التنويم المغناطيسى :

كتيب بدأ به عبد القادر سلامة سلسلة أسماها «ما يجب أن تعرفه عن ...» ينوى فيها التعريف بالمغنطة الجسمية وغيرها وباليوغا وأمثالها وبالتنجيم ... قاصدا منها فقط فتح آفاق جديدة أمام القارىء العربى قصد تبرير العلوم الروحانية من الصورة المشوهة التى يحملها عنها .

أصدقاء الفكر

● **مائدة مستديرة حول أدب البشير خريف :**

نظم نادى الدراسات الادبية بمركز الفن الحي بالبلفيدير يوم الجمعة 10 فيفرى 984 مائدة مستديرة حول اثر البشير خريف الادبى وقد شارك فى هذه التظاهرة جامعيون ونقاد وكتاب كان من المنتظر ان يحضر فى هذه المائدة التى تمت برمجتها منذ شهر اكتوبر 1983 البشير خريف نفسه الا انه وافاه الاجل المحتوم قبل الموعد المحدد .

دامت الحصة ثلاث ساعات ونصف وقد احتوت على جزئين كبيرين : تمثل الاول فى تقديم أربع مداخلات مكتوبة حول كتابات البشير خريف ثم تلتها مناقشة حول جوانب عدة من هذه الكتابات .

تميزت مداخلة صالح الحاجة بكتابتها الجذابة وبشاعرية ايحاءاتها فى التعرض الى سمات حياة المرحوم وقد شبه صالح الحاجة البشير خريف بالنخلة وبين عمق هذا التشبيه ثم اثار فى حديثه عن سيرته الذاتية الى تقنيات كتابته خاصة منها التى تتعلق بعلاقة التبادل بين الفصحى والعامية .

ثم قدم محمد مومن دراسة للمجموعة القصصية « مشموم الفل » فقام بتصنيف للقصص التى احتوى عليها الكتاب ابرز فيه وجود ثلاثة اجناس : الملحة (خليفة الاقرع ، النقرة مسدودة) القصص التعليمية (محفظة السمار) القصة العجيبة (المروض والثور) ثم قام بتحليل سيميولوجى للعلاقة بين العنوان والمحتوى كما اقترح ايضا قراءة للمجموعة معتمدة على العلاقة بين الكتابة والعنف فدرس كتابة العنف وعنف الكتابة فى تمشيهما الجدلى عبر الميثولوجيا اليومية والقيم الاجتماعية والثقافية المحولة الى نص أدبى

تمثلت مداخلة حمدي الحمايدي فى دراسة للمضمون فى « حبك دربانى »

وقد أبرز الدارس تداخلا لعوالم ثلاثة فى هذا الاثـر : عالم المـرأة ، وعالم المسرح ، وعالم التجارة ، ومن خلال هذا التداخل توصـل الى تبيين وجـود ثوابت منها : هيمنة شخصية الاعزب ، تواجد الوموس ، وغياب الاب ، ثم قام بمقارنة سريعة بين « حبك دربانى » والرواية « البيكارية » الاسبانية وبربط لشبكات العلاقة بنظرية « الرواية العائلية » فى التحليل النفسى مع التأكيد على ان « حبك دربانى » تمثل « رواية عائلية مضادة » .

كانت المداخلة الرابعة والاخيرة لفوزي الزمرلي وهى بعنـوان « البـداية والنهاية فى روايات البشير خريف » وقد قام صاحبها بدراسة مقارنة للحالات الاستهلالية والحالات الختامية فى ثلاث روايات حسب ترتيبها الزمني : « حبك دربـانى (1958) ، « برقـ الليـل » (1960) ، و « الدقلة فى عراجينها » (1966) وقد لاحظ ان بين النص والآخر تطورا واضحا للتقنيات وهو ما يثبت انه كان للبشير خريف ثقافة واسعة تمتد من النصوص العـربية الكلاسيكية الى الرواية الحديثة ، الفرنسية منها والروسية .

ثم تلا هذه المداخلات نقاش مثير شارك فيه كتاب ونقاد وصحافيون وقد ركز المناقشون على جانب السيرة الذاتية فى بعض القصص وعلى تأثر البشير خريف بـ « ألف ليلة وليلة » وبالفن القصصى الاسبانى وبطبيعة الحال بفن القصة الحديثة لانه عاشر الدكتور المرحوم فريد غازي طويلا كما ركزوا أيضا على هاجس لدى البشير خريف الا وهو العلاقة بين الرجل والمرأة عـلى جانب متعة النص بالنسبة الى كاتبه والى قارئه وعلى سمة « الداندي » فى شخصية وابداع البشير خريف .

● **جوائز تشجيعية للانتاج الفكرى بتونس :**

أكد السيد بن سلامة وزير الشؤون الثقافية ان انشاء صندوق التنميـة الثقافية الذى رصدت له الحكومة مجموع ثلاثة ملايين دينار يعد ثورة ثقـافية ستتمكن الوزارة بواسطته من اقتناء للانتاج الثقافى مبينـا ان هذا العمـل سيمكن من ضمان حقوق المؤلفين والتشجيع على النشر الى جـانب انتفـاع ضمان النشاط الثقافى فى البلاد من هذا الانتاج .

وقال السيد بن سلامه لدى اشرافه عشية يوم 84/2/18 بمقر وزارة الشؤون الثقافية على حفل توزيع جوائز تشجيعية على ثلة من الادباء والكتاب الـذين نشروا انتاجهم طيلة سنة 1983 وقدموه بانفسهم أو عن طريق دور النشـر لنيل الجائزة التشجيعية ان وزارة الشؤون الثقافية اتفقت مع وزارة الاعلام على ضرورة العمل من أجل التعريف بالكتاب التونسى عبر قنـوات الاذاعـة

والتلفزة والصحف كما اتفقت مع المعهد القومي الأعلى للتوثيق على تأليف دليل للمنشورات التونسية يعرف بالمبدعين في كل الفنون الادبية .

وبشر السيد البشير بن سلامه الادباء بأن الوزارة اتمت اعداد (مختارات الادب التونسى المعاصر) وهو عمل أدبى يتضمن أهم الاتجاهات فى القصة والشعر خلال قرن كامل .

وأضاف ان الوزارة فكرت فى نطاق سعيها الى تأمين رواج الكتاب التونسى فى بعث مراكز فى البلاد العربية وفى باريس يهدف ضمان اشعاعه كما ان معرض تونس للكتاب سيشهد فى دورته الثالثة هذا العام انطلاقة جديدة اذ انه يأخذ بعدا دوليا بمشاركة عربية وأوربية وآسيوية .

وذكر الوزير مظاهر تدخل الوزارة لدعم الكتاب فقال ان هذا التدخل يشمل اقتناء الكتب لمكتبات المطالعة وتقديم الجوائز التشجيعية ومكافآت ودعم الورق والشحن المجانى للخارج وتنظيم المعارض الدولية للكتاب ودعم عدد من المجلات .

ودعا السيد الشير بن سلامه فى ختام كلمته كل المثقفين من أدباء وشعراء وفنانين الى اسماء صفحاتهم فيما تقوم به الوزارة لدعم الكتاب خاصة والانتاج الفكرى بصورة عامة .

● **الكتب المجازة لسنة 1982 :**

1) مقامات الموسيقى العربية ، د. صالح المهدى ـ 2) دراسات فى نقد الشعر ، د. نور الدين صمود ـ 3) العالم الثالث ونمو التخلف ، د. محمود عبد المولى ـ 4) دائرة الاختناق ، د. عمر بن سالم ـ 5) ليلة السنوات العشر، د. محمد صالح الجابرى ـ 6) لاهثون معي ، ساسى حمام ـ 7) فارس عربى ، محمد سعيد القطارى ـ 8) رقصة البركان ، مصطفى الحبيب بحرى ـ 9) التطليق ، ترجمة صالح القرمادى مراجعة محمد الشاوش ـ 10) محا المعتوه .. محا الحكيم ، ترجمة صالح القرمادى مراجعة كمال قحه وعبد الوهاب الدخلي ـ 11) الفيل الصغير ، عبد الجبار الشريف ـ 12) فى واد غير ذى زرع ، أحمد اللغمانى ـ 13) أهازيج ، محمد علي الهاني .

● **وزير الثقافة يجتمع بهيئة اتحاد الممثلين :**

اشرف السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية صباح يوم 1984/2/11 بمقر الوزارة على اجتماع ضم اعضاء مكتب هيئة اتحاد الممثلين المحترفين وممثلى الفرق المسرحية الجهوية وقد خصص هذا الاجتماع للنظر

فى المسائل المتعلقة بقطاع المسرح الجهوى وخاصة منها مشاريع النصوص القانونية الهادفة الى تنظيم قطاع المسرح وهى .. القانون الاساسى المتعلق بتنظيم المهنة المسرحية والنظام الاساسى للمسرح الوطنى والامر المتعلق باحداث البطاقة المهنية للاحتراف المسرحى والامر المتعلق بأحداث لجنة أسناد منح التسيير والتجهيز والمساعدة على الانتاج المسرحي للهياكل المسرحية المحترفة والامر المتعلق بالنظام الاساسى للفرق المسرحية الجهوية ٠

كما تم النظر ايضا فى طريقة توزيع الانتاج المسرحى المحترف من اجل ايجاد برنامج سنوى دسم للعروض المسرحية موزع على جميع فصول السنة وتقرر بهذا الصدد تكوين لجنة فنية تشمل اعضاء ممثلين عن مصالح الوزارة المعنية واتحاد الممثلين المحترفين يعهد لها مهمة اقتناء العروض المسرحية المرشحة للبرمجة القومية وتحديد مكافأتها وفقا للمقاييس المحددة

واختتم الاجتماع بتكوين لجنة مشتركة بين هيئة اتحاد الممثلين المحترفين وبين المسؤولين عن المصالح المعنية فى الوزارة لمعالجة المسائل المتعلقة بتنظيم ودعم قطاع المسرح المحترف ومتابعة تنفيذ القرارات الخاصة به ٠

كما تم الاتفاق على عقد الملتقى القومي للمسرح الجهوى قصد النظر فى اوضاع الفرق المسرحية الجهوية وايجاد الحلول الكفيلة بتطوير عملها واحكام تسييرها حتى يتسنى لها توفير انتاج مسرحى مميز ٠

● **ملتقى حول الثقافة والعنف :**

اشرف السيد البشير بن سلامه وزير الشـؤون الثقـافية على اختتام الاجتماع التحضيرى لتنظيم ملتقى / الثقافية والعنف / الذى التأم بعد ظهر يوم 84/2/9 بمركز الفن الحى بالبلفيدير .

وسينتظم هذا الملتقى خلال شهر ماى المقبل بتونس بمشاركة خبراء تونسيين واجانب ٠

وبين السيد البشير بن سلامة ان العلاقة بين الثقافة والعنف ليست حكرا على الادارة الثقافية وحدها بل هى نتيجة لتفاعل مجهودات لتصور الاعمال التى يمكن القيام بها فى نطاق مؤسسات ثقافية ولكن يجب القضاء على اسباب او محاولات القيام بالعنف على الاقل بالتقليل بصورة ملحوظة من نطاقها وحدتها ٠

وأشار الوزير من جهة أخرى الى ان التركيبة العربية الاسلامية التى طبعت مجتمعنا منذ 14 قرنا تعد حجر الزاوية لشخصيتنا الآساسية وان نمط

المعاصرة الذى سنسير عليه مستقبلا يخضع لهذه التركيبة مثلما اكد ذلك الرئيس بورقيبة فى مناسبات عديدة ·

وتحدث عن مشكل العنف فلاحظ ان العنف اليوم اصبح متفجـرا وربما اثر على محيط ثقافى يشعر فيه الانسان بانعدام الطمأنينة وبانخرام التوازن الذى افرزه العالم المعاصر عن وعى او عن عدم وعى ·

وأكد السيد ابن سلامه ان العنف اللفظى مؤذ ويبعث على الحيرة مثله مثل العنف المادى وانه بامكان وسائل الاعلام ان تلعب دورا أوليا فى تهـذيب الغرائز وتوظيفها فى خدمة مجهود خلاق وبناء ·

● **وزير الثقافة يجتمع بمجلس ادارة الدار التونسية للنشر :**

اشرف السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقـافية صبـاح يـوم 1984/2/7 على اجتماع مجلس ادارة الدار التونسية للنشر بحضور السيد عبد العزيز العاشورى الرئيس المدير العام لهذه المؤسسة ·

واكد الوزير بالمناسبة على اهمية الدور الذى يضطلع بـه مجلـس ادارة المؤسسات الوطنية من حيث قدرته على مواكبة نشاط المـؤسسة واحكـام تسييرها بما يضمن لها تحقيق اهدافها الاجتماعية والاقتصادية ·

والح من جهة اخرى على وجوب مواصلة النظر فى خصوص تسديد الديون المتخلدة بذمة الدار التونسية للنشر ضمانا لحقوق المؤلفين داعيا هذه الدار الى التعاون مع المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات وكذلك الى احداث سلسلة من الكتب تتناول مواضيع مختلفة مع التركيز على ادب الشباب وذلك بتخصيص سلسلة لهذا الغرض استجابة للسياسة الثقافية العاملة على احتضان الشباب وابراز المواهب الجديدة وتوظيفها فى أعمال مثمرة خلاقة .

واعرب السيد البشير بن سلامة فى الختام عن ارتياحه لما تقوم به الدار التونسية للنشر من عمل يندرج فى نطاق السياسة الثقافية القومية بما فى ذلك تطوير صناعة الكتاب وادراجه ضمن الدورة الاقتصادية ·

واستعرض السيد عبد العزيز العاشورى فى مستهل الاجتمـاع جـدول اعمال مجلس الادارة مقدما بسطة عن سير نشاط المؤسسة وبرامجها المستقبلية خاصة فى قطاع الانتاج والتوزيع الذى بلغ فى نطاقه مجموع العناوين التى صدرت 85 عنوانا سنة 1983 فى حين يتضمن برنـامج الانتـاج لسنة 1984 75 عنوانا للنشر و 93 عنوانا لاعادة النشر ·

ودشن السيد البشير بن سلامة قبل ذلك المقر الجديد للدار التونسيـة

للنشر حيث اطلع على مختلف اقسامها وعلى سير نشاطها كما زار مستودعا للكتب التابع لها .

● **المهرجانات الثقافية الدولية بتونس :**

اجتمع السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية صباح اليوم بمقر الوزارة بمديري المهرجانات الدولية للنظر فى موضوع الاعداد لهذه التظاهرات بالنسبة للموسم الثقافي الحالى .

وقد اثيرت خلال الاجتماع عدة مواضيع هيكلية وتنظيمية ومادية تهم المهرجانات الثقافية الدولية ومن بينها مسألة اعادة تصنيف المهرجانات حسب الاهمية والامكانيات التى يمكن ان يوفرها المهرجان ذاته واعطاء كل مهرجان طابعه وصيغته الخاصة .

واوصى وزير الشؤون الثقافية فى هذا الخصوص بضرورة وضع اطار قانونى للمهرجانات ومراجعة قائمة هذه التظاهرات لثبوت عدم قدرة البعض منها على تسديد المصاريف التى تتطلبها البرمجة الدولية مبينا ان المهرجان الدولى هو الذى يستطيع على الاقل توفير وتحمل نفقات جانب من العروض الثقافية الدولية اضافة الى الصبغة التخصصية التى يركز عليها برمجته .

وتعرض السيد البشير بن سلامة الى دور صندوق التنمية الثقافية فى دعم المهرجانات وهى ظاهرة جديدة بالنسبة للموسم الثقافى الحالى فبين ان هذا الصندوق سيساهم فى اقتناء الانتاج الثقافى الجيد سواء الدولى او المحلى داعيا المنتجين التونسيين الى الخلق والابتكار نظرا لما ستتوفر لهم من تشجيعات عن طريق الصندوق .

واوصى وزير الشؤون الثقافية باعطاء الانتاج التونسى مكانة تميزه ضمن البرمجة للمهرجانات وعدم حصر هذه التظاهرات فى فترة محدودة من السنة بكيفية تجعلها تغطى كامل الموسم الثقافى والتفكير فى امكانية تنظيم تظاهرات خاصة بالأطفال ضمن المهرجانات الثقافية .

كما أكد على أهمية بسط علاقات تلك المهرجانات بمهرجانات البلدان الشقيقة والصديقة حتى يتسنى تبادل الفرق والتجارب مع المهرجانات التونسية كما دعا الى تحسيس مختلف الوزارات والمنظمات القومية لبلوغ الاهداف السامية التى يدعى اليها العمل الثقافى .

● **توصيات المجلس الأعلى للنشر :**

ننشر فيما يلى التوصيات التى أوصى بها المجلس القومى للنشر فى دورته

الثانية والتى بدأ تنفيذها من قبل وزارة الشؤون الثقافية :

1) بعث اتحاد الناشرين التونسيين .

2) الترفيع فى كمية الشراءات التشجيعية للانتاج الادبى والعلمى (صندوق التنمية الثقافية وادارة الآداب) .

3) تطوير معرض تونس للكتاب الى معرض دولى .

4) بعث مراكز للكتاب التونسى بعدد من العواصم العربية والاوربية (باريس – القاهرة ...) :

5) تخصيص دور النشر لانتاج السلاسل المختصة فى المعارف .

6) بيت الحكمة : تنمية المكتبة التونسية بترجمة أهم الوثائق والدراسات.

7) وضع جزء من ميزانية الوزارة يصرف فى عملية اشهار الانتاج الادبى والعلمى التونسى .

التوصيات التى تباشر الوزارة تنفيذها ووضع صيغ تحقيقها :

1 – بعث مركز لتكوين الاطارات العليا فى فن الطباعة .

2 – التهيئة لانشاء « المعهد » المغربى « للكتاب وتنمية المطالعة » .

3 – ايجاد نادى الكتاب التونسى .

4 – ضبط مقاييس تكلفة صناعة الكتاب واحترام معادلة تسعير الكتاب بشأن تحديد سعر بيعه للعموم .

5 – التنسيق بين المكتبة الوطنية والمعهد القومى للمواصفات لتطبيق أهم التقنيات اللازم اعتبارها فى نشر الكتاب .

6 – التعاون مع وزارة الاقتصاد لمراقبة تكلفة صناعة الكتاب .

7 – دفع دور النشر ودور الطباعة لتنسيق الطباعة والنشر ما من شأنه أن يساعد على « تعصير » أجهزة الطباعة فى تونس وتعدادها .

8 – التعاون مع وزارة الاقتصاد لتحديد مدة التعويض عن الورق واختصارها .

9 – التعاون مع ديوان التجارة الخارجية لتوضيح الموقف بشأن تحديد حصص التوريد على أساس ان تكون متناسبة والكميات المصدرة من الكتاب التونسى .

ضمان حقوق المؤلف :

– اذا تعهدت وزارة الشؤون الثقافية باقتناء 500 نسخة من كل عنوان تونسى يلتزم الناشر بدفع 50 % من حقوق المؤلف اثر صدور الكتاب .

– اذا تعهدت وزارة الشؤون الثقافية باقتناء 1000 نسخة من كل عنوان

تونسي يلتزم الناشر بدفع كامل حقوق المؤلف اثر صدور الكتاب .

وسيتم بالتعاون بين وزارة الشؤون الثقافية والمؤسسات التالية :

1 ـ **اتحاد الناشرين التونسيين :**

أ) تنظيم معارض الكتاب التونسي بالخارج ومساهمة الناشرين التونسيين في المعارض الدولية .

ب) اصدار نشرية الكتاب التونسي كل شهرين .

2 ـ **المعهد القومي الأعلى للتوثيق :**

تاليف دليل المنشورات التونسية .

3 ـ **اللجنة الثقافية القومية :**

احداث شهر الكتاب في مختلف مناطق الجمهورية تدعيما للامركزية الثقافية .

4 ـ **وزارة الشؤون الاجتماعية :**

بحث سبل ايجاد نواة مكتبة داخل المؤسسات التي يزيد عدد عمالها وموظفيها على 200 عاملا .

5 ـ **وزارة الاعلام :**

حث أجهزة الاعلام السمعية والبصرية على تخصيص حصص قارة للتعريف بالمنشورات .

● **الى المؤلفين والمحققين والمترجمين :**

تنفيذا للامر عدد 749 بتاريخ 21 اوت 1979 المتعلق بتشجيع الدولة للانتاج الادبي والعلمي ، تذكر وزارة الشؤون الثقافية السادة المؤلفين والمحققين والمترجمين التونسيين بان آخر اجل لترشيح المؤلفات التونسية الصادرة سنة 1983 لجوائز التشجيع على الانتاج الادبي والعلمي هو موفى شهر مارس 1984 .

فعلى السادة الراغبين في ترشيح كتبهم لهذه الجوائز ان يقدموا ملفات الترشيح قبل نهاية الاجل المذكور ، ويتألف الملف كما هو مبين بالفصل الثالث من الامر المشار اليه من :

1) طلب ممضى من المؤلف .

2) اربع نسخ من الكتاب المرشح .

● **قوس قزح للاطفال :**

صدر مؤخرا العدد الاول من مجلة للاطفال تحمل اسم «قوس قزح» .

وكما يشير اسمها فان هذه المجلة جاءت متنوعة على مستوى الشكل والمضمون فقد حرصت على ان تجمع بين الافادة والترفيه متوخية اسلوبا يتماشى وفكر الطفل وفهمه والوانا مزركشة تشجعه على مزيد القراءة .

المجلة تضمنت العديد من القصص والمغامرات الى جانب معلومات تفيد الطفل فى ثقافته العامة مثل ركن « أرقام قياسية » وركن « كيف ؟ ومن انت .. » بالاضافة الى الالعاب وحديقة الحيوان التى فيها معلومات عن الحيوانات .

ونشير ايضا ان هذه المجلة تشتمل على مسابقة موجهة للاطفال وتدفعهم الى البحث والتأمل ، وبهذا المحتوى المتنوع تمثل المجلة اضافة هامة بالنسبة الى ثقافة اطفالنا .

● **انطلاق منتدى القصاصين باتحاد الكتاب :**

افتتح اتحاد الكتاب التونسيين بمقره الجديد يوم الاربعاء 84/2/16 منتدى القصاصين الذى جاء ليعزز نشاط نادى القصة بالوردية الذى يفتح ابوابه للقصاصين والنقاد منذ سنوات عديدة .

وقد حضر الافتتاح الاستاذ محمد العروسى المطوى رئيس اتحاد الكتاب التونسيين الذى نوه بهذه البادرة المشجعة لتنشيط الكتابة الادبية فى تونس وتنمية النقد بها .

وتشرف على هذا المنتدى الزميلة حياة الرايس التى أعلنت أن هذا المنتدى سينشط كل يوم اربعاء على الساعة السادسة مساء مبدئيا وقد يتم اتفاق مع نادى الشعر باتحاد الكتاب لتغيير هذا الموعد فى ايام لاحقة ..

ويهتم هذا المنتدى بالقراءات القصصية والدراسات النقدية المتعلقة بالقصة فى تونس وباقى البلاد العربية .

وقد حضر الجلسة الاولى عدد من القصاصين والشعراء والنقاد .

وتمت قراءة قصة بعنوان «حلم على الطريق» وناقشها الحاضرون وابرزوا قيمتها الفنية وبعض الهنات التى وقع فيها الكاتب .

● **ملتقى ابن عرفة بتطاوين :**

افتتح يوم الجمعة 84/2/17 بولاية تطاوين الدورة الرابعة لملتقى ابن عرفة حول دور ابن عرفة فى العلوم الدينية .

وتواصل الملتقى ثلاثة أيام وأشرف على افتتاحه السيد عبد العزيز بن ضياء وزير التعليم العالى والبحث العلمى .

واشتمل البرنامج على المحاضرات التالية :

- ابن عرفة عبر قرون سبعة : محاضرة الاستاذ **سعد غراب** .
- ابن عرفة المفسر : محاضرة الاستاذ **عبد الله الوصيف** .
- ابن عرفة وأصول الدين : محاضرة للاستاذ **عبد المجيد النجار** .
- ابن عرفة وجهوده في المنطق : محاضرة للاستاذ **محيي الدين عزوز** .
- ابن عرفة المحدث : محاضرة للاستاذ **الطاهر الجوابي** .
- علاقة ابن عرفة بعلماء الاندلس : محاضرة للاستاذ **محمد أبو الاجفان** .
- ابن عرفة وكتابه الحدود : محاضرة للاستاذ **الصادق الحلوى** .
- ابن عرفة من خلال اثاره : محاضرة للاستاذ **محيي الدين قادى** .
- ابن عرفة من حيث حياته واثاره : محاضرة للاستاذ **سعد غراب** التى يقول فيها متحدثا عن ابن عرفة :

هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد (ثلاث مرات) بن عرفة ينسب الى قبيلة ورغمة التى ترجع الى قبائل هوارة وهي من قبائل البرانس البربرية التى تاثرت كثيرا بالعرب واختلطت بهم .

ويذكر سعد غراب ان ابن عرفة ولد بتونس العاصمة فى رجب سنة 716 هـ أكتوبر 1310 ، ثم يتحدث عن تعلمه وثقافته وتالقه ومن أهم تاليفه تفسير ابن عرفة - المختصر فى الفقه - المختصر الشامل فى أصول الدين - المختصر فى المنطق - المختصر فى أصول الفقه ثم مختصر الحوفى فى الفرائض .

● **أطروحة دكتورا جديدة حول « ابن خلدون » :**

نوقشت أطروحة لنيل دكتورا المرحلة الثالثة أواخر شهر أكتوبر الماضى على منبر الجامعة التونسية « كلية الشريعة وأصول الدين » قدمها الاستاذ محمد العلانى الذى نجح فى هذا العمل العلمي بملاحظة حسن جدا ، وقد كان عنوان البحث « ابن خلدون وأثر الدراسات الدينية فى تفكيره » .

ومن خلال التصفح العابر لهذا العمل الذى أنجز فى (1174) صفحة وقسم الى ثلاثة أجزاء وخمسة أبواب وتسعة عشر فصلا ، وذيل بفهارس ، وثبت للمصادر والمراجع التى قاربت 150 ؛ وبالاقتصار على قراءة المقدمة وبعض النتائج المتوجة للفصول والابواب والنتائج النهائية العامة ، وعلى فهرس الموضوعات ، والوسائل البيانية من جداول وخطوط بيانية مختلفة ودوائر احصائية تساعد على تأطير أفكار ابن خلدون أو تحديد نسب الفترات التى ميزت حياته المضطربة والقلقة ، فمن خلال كل ذلك ؛ يمكن القول : إن الدكتور العلانى عمل على تكريس الجهود التى ما زالت مبذولة لارجاع علامتنا

الخالد (عبد الرحمن بن خلدون) الى بيئته التونسية الافريقية المغربية ؛ ذات الجذور العربية الاسلامية ، مع الحفاظ على الحياد والموضوعية بما تتطلبه الدراسات العلمية الحديثة ، من وجوب تسليط بعض المعايير المنهجيه على تراثنا العلمى الذى قبع قرونا فى رفوف مكتبات البلاطات والمكتبات العائلية الخاصة مع امكانية استلهام هذا التراث الزاخر لدعم كيان الامة فى سبيل بناء مستقبلي شامخ تحييه الاجيال بوحي من واقعها واستلهاما من أصالتها وروحها وأرومتها الطريفة .

فلقد كان شخص عبد الرحمن ابن خدون نفسه مثالا فريدا لما أنبتته التربة التونسية الزكية ؛ فهو التونسى الاشبيلي الاندلسى اليمني الحضرمى الذى ما فتىء يذكر مسقط رأسه فى أشعاره مستهيما به ومتشوقا اليه ، وهو العالم التونسى الذى تناول فى مقدمته أغلب التراث الانسانى وغاص فى اهم أبوابها الى تراث الثقافة الاسلامية وتأثر بها وأثر فيها ، وتعامل مع المفاهيم السائدة فى عصره وتفاعل مع واقعه تفاعلا ذكيا جعله يضيف على ذلك الواقع ما ابتدعه من علم جديد بالنسبة لعصره هو علم العمران البشرى والاجتماع الانسانى .

ومع ذلك كله ، فان الباحث لم يتورط فى المدح المجانى ولم تستهوه ـ صفة ابن خلدون التونسى ـ للانزلاق فى مهاو معروفة متميزة بالطوبائية أو الانغلاق ، وإنما سبر عناصر التفكير الخلدونى سبرا ميدانيا محايدا وسلط ـ على حد قوله ـ نظرات تركيبية على كل عنصر ظهر له أن فيه امتدادا لعراقة التفكير الدينى فى منهجية ابن خلدون العلمية مبرزا خاصة تحالف عاملى الايمان والعقل معا فى هذا التفكير ، ومعددا جوانب هذا التحالف فى أغلب أبواب وفصول المقدمة الخلدونية الذائعة الصيت ؛ وهو ما سبب له تضخم هذه الاطروحة ـ نسبيا ـ من حيث الحجم باعتبار أهمية ابن خلدون الذاتية وأهميته على ركح الثقافة الانانية من ناحية ، ودقة عصره ومساهمته فى نحت بعض معالمه سياسيا ثم كثافة المعلومات التى تعج بها مقدمته ، وتضخم وتنوع وثراء التراث الاسلامى الذى تأثر به ابن خلدون من ناحية ثانية ، ثم تشعب ووفرة الدراسات الحديثة التى أنجزت حول فكره وعلمه وكثافتها وتناقضها أحيانا من جهة ثالثة ...

ولهذا فان النقد المنهجى لهذا العمل العلمي الجديد لا يمكن أن يحصل الا بعد بروزه مطبوعا ، ييسر التعرف على أهم ما يعنينا منه وهو امكانية استغلال التراث الخلدونى من قبل الاجيال الشابة التى يتعين الا تبقى حبيسة

المنهجية الاجنبية عن بيئتنا وأصالتنا بل ينبغى أن تسهم هى نفسها فى خلق مناهج تونسية للبحث ذات طابع اسلامى عربى وانسانى ، وهو من أهم ما نادى به صاحب هذه الاطروحة ، باعتبار ان هذه التربة سخية بطبعها وقادرة على هضم كل الثقافات ومؤهلة لخلق أفكار رائدة مثل فكر ابن خلدون ....

● افتتاح الاسبوع الثقافى الالمانى فى تونس :

● افتتح الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية بحضور السيد هانس كاهلى سفير المانيا الاتحادية بتونس الاسبوع الثقافى الالمانى الذى ينتظم من 16 الى 24 فيفرى الحالى .

ودشن الوزير بالمناسبة معرضا للرسام الالمانى هانس مارتان ارهارد برواق وزارة الاعلام .

وتجدر الاشارة الى ان الرسام هانس مارتان ارهارد تحصل على جوائز عديدة فى هذا الميدان واقام عدة معارض بباريس 1947 وشتوتغارد 1975 وليون 1976 ودبسلدورف 1976 وفرانكفورت 1976 .

هذا ويتضمن برنامج الاسبوع الثقافى الالمانى بتونس عروضا لرقص البالى تقدمها فرقة أوبرا كولونيا وكذلك عروضا مسرحية وسنمائية موسيقية .

● ملتقى تونس ـ ارض الحوار :

تحت اشراف السيد عبد العزيز بن ضياء وزير التعليم العالى والبحث العلمى وسفير المانيا الفيدرالية بتونس نظم معهد اللقاءات الدولية ببون والمركز الثقافى الالمانى بتونس ومركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ملتقى «تونس ـ ارض الحوار» وذلك ايام 20 و 21 و 22 فيفرى 1984 بنزل البلفدار فى العاصمة .

ويتضمن الملتقى العديد من المحاضرات .

● ملتقى ابى لبابة فى دورته الثالثة :

ان البلاد التونسية عبر الحضارات التى تواردت عليها والتى تركت سماتها البارزة فى المعالم والاثار تعد من بلدان المغرب العربى التى تولى عناية فائقة ومتجددة بكل القواسم الحضارية والاسلامية المشتركة من ذلك الندوات الاسلامية التى دابت وزارة الشؤون الثقافية منذ سنوات على تنظيمها فى مختلف ولايات الجمهورية .

وفى هذا الاطار احتضنت مدينة قابس ايام 10 و 11 و 12 فيفرى الحالى الدورة الثالثة لملتقى ابى لبابة حول (العوامل المساعدة على توطيد الاسلام

بالمغرب) بمشاركة عدد من الاساتذة الجامعيين ومن المؤرخين ورجال الدين.

واستهل الدكتور **محمد الطالبي** سلسلة المحاضرات متحدثا عن « دور الصفرية والاباضية في **توطيد الاسلام بالمغرب**» مبينا ان **هذين المذهبين** قد قاما بالدور الكبير في أواخر القرن الاول الهجري قصد انقاذ الدين الاسلامي ازاء **انحراف البربر** عنه نتيجة لما تميزت به سياسة بعض الولاة **الامويين** من تردد في تسيير شؤون البلاد .

ولئن اهتم المحاضر بالمذهب الصفري نسبة الى عبد الله الصفار صانع آلات النحاس والمذهب الاباضي الذي يعد من اقدم المذاهب الاسلامية نسبة الى عبد الله بن ايباض فقد اعتنى الدكتور جمعة شيخة بالمساجد والرباطات كعنصر من عناصر توطيد الاسلام في افريقية معتمدا في ذلك على ثلاثة كتب تراجم اعدت خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة وهي : «**طبقات علماء افريقية وتونس**» لابي العرب بن تميم القيرواني و «**قضاة قرطبة وعلماء افريقية**» لابي عبد الله بن الاسد الخشني و «رياض النفوس» لابي بكر **عبد الله المالكي**.

واوضح ان المساجد كانت تشكل مركزا للحياة السياسية **والاجتماعية والاقتصادية والثقافية** في ذلك العهد بالاضافة الى وظيفتها في **تدعيم استقرار الدين الاسلامي** ونشره وحمايته من الاخطار الخارجية التي **استوجبت انشاء الرباطات** بالاماكن الاستراتيجية من اجل السهر على حماية **ارض الاسلام بافريقية** .

وقد تمادت هذه المسيرة مع ما اظهره البربر **من عطاء ومساندة بانضمامهم الى الجيوش العربية** من اجل نصرة **اوطانهم** وتدعيم **الدين الاسلامي بها حسب ما اورده** الاستاذ الهادي الزريبي في تدخله ضمن اشغال الدورة الثالثة **لهذه الندوة** التي اهتم من خلالها الدكتور المنجي الكعبي **بنظرية البحث عن العوامل** الاجتماعية والحضارية والنفسية التي ساعدت على توطيد الاسلام بالمغرب .

واشار في هذا الصدد الى مبادرة المستشرقين بالدعوة الى **البحث في هذه العوامل** وتفسير اسلام البربر في شمال افريقيا بعد مرور اكثر من الف عام على اعتناقهم هذا الدين .

ومما يستنتج من هذه الدورة انه رغم ما تميز به **مستوى المحاضرات وما** تبعها من نقاش ثري وجاد فقد انحصرت المشاركة في ثلة **من المثقفين والمهتمين** بمثل هذه المواضيع في حين كان من الاجدى ان **يحضرها عدد من الشبان والطلبة** للافادة والاستفادة من فحوى هذه الندوة التي التامت **في فترة تشهد خطوات هامة** لبناء صرح المغرب العربي الكبير .

● **مادة لحماية أشرطة الافلام السنمائية من التلاشي :**

اخترع علماء معهد الفيزياء والتقنية التابع لاكاديمية العلوم في جمهورية تاجكستان السوفياتية مادة تحول دون فقدان اشرطة الافلام السنمائية وألياف القطن والملونات السائلة صفاتها بمرور الزمن ٠

فبفضل المادة الجديدة التي لم يكشف النقاب عن اسمها يمكن للشريط السنمائي ـ أسود ـ أبيض ـ الذي يتلف بعد مرور عشرين عاما ان يستمر في الحفاظ على صفاته وخاصياته وكذلك الامر بالنسبة للافلام الملونة التي تتلف بعد عشر سنوات نتيجة تأثير الاوكسيجين واشعة الضوء

كما ان اضافة عدة غرامات من هذه المادة الى المواد الخام عند صنع الشريط تمنع تلفه اما بالنسبة للالياف القطنية فان اضافة هذه المادة تزيد من مقاومتها لتأثير الضوء والحرارة ٠

● **الينسكو تحتفل بالذكرى المئوية لميلاد المستشرق لويس ماسينيون :**

شهد مقر الينسكو في باريس صباح يوم الجمعة في 9 ديسمبر / كانون الاول 1983 احتفالا بالذكرى المئوية لميلاد المستشرق الراحل لويس ماسينيون بحضور عدد كبير من الشخصيات الدبلوماسية والادبية ٠

كما نظمت الينسكو بالتعاون مع «رابطة الذكرى المئوية للويس ماسينيون» في اليوم ذاته ، حلقة بعنوان «حداثة فكر لويس ماسينيون» في معهد كوليج دي فرانس ، سيجرى خلالها بحث موضوع الحوار بين المسلمين والمسيحيين ٠

وقد مارس المستشرق الراحل (1883 ـ 1962) مهنة التعليم في جامعة الازهر في القاهرة خلال عامي 1912 ـ 1913 حيث ألقى دروسا باللغة العربية حول الفلسفة الاسلامية ٠ ثم انضم الى أسرة التدريس في معهد كوليج دي فرانس في عام 1926 ٠ وأسس بعد ذلك على التوالي ، اللجنة المسيحية للتفاهم الفرنسي ـ الاسلامي (1947) ، ولجنة فرنسا ـ المغرب (1953) ٠ وقام السيد ماسينيون بمبادرات عديدة لصالح حقوق الانسان ، ونظم مثلا حملات توعية للرأى العام حول مصير اللاجئين الفلسطينيين والسجناء السياسيين في جزيرة مدغشقر ٠

وقد شارك ايضا في اول مؤتمر عام عقدته الينسكو ، ألقى خلاله كلمة حول تفسير الحضارة العربية في الثقافة الفرنسية ، وأسهم بفعالية حتى وفاته بالانشطة الثقافية للمنظمات ذات الصلة بالتراث الثقافي العالمي ٠